روايات عالمية للجيب 67

عبودية الإنسان

تأليف : سومرست موم
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



(ويليام سومرست موم Somerset Maughm) .. روائى بريطانى فائق الشهرة له عدد كبير من الروايات الممتعة ، ويدور حوله جدل دائم فى أروقة المهتمين بالأدب ، فالبعض يعتبره عبقريًا ومنهم كتاب كبار مثل أنطونى بيرجس وجورج أورويل ، والبعض يعتبره كاتبًا مسليًا لا أكثر يناسب ذوق العامة . عن نفسى أنا أميل للرأى الأول ، لكن عيب الرجل ـ أو مزيته الأساسية ـ حرصه البالغ على أن تكون كتاباته مسلية ، وهو خطأ لا يغتفر عند بعض النقاد حيث التسلية مرادف للسطحية .

ولد الرجل فى فرنسا عام 1874 . لا تنس أنه بريطانى طبعًا ، وتوفى هناك عام 1965 . كان أبوه محاميًا فى السفارة البريطانية فى باريس ، وقد ولد موم فى السفارة نفسها باعتبارها أرضًا بريطانية . عندما توفيت أمه ثم أبوه أرسل موم إلى إنجلترا ليربيه عمه القس الذى لم يحبه قط وعلمه معنى القسوة . هنا أصيب

باللعثمة التى لم يشف منها طيلة حياته ، وهذا قضى على المستقبل الذى توقعوه له كواعظ . أرسله عمه فى رحلة دراسة إلى ألمانيا حيث تعلم الفلسفة واللغة الألمانية . درس الطب وتخرج عام 1897 فى مدرسة سانت توماس الطبية إلا أنه سرعان ما ترك الطب بعد نجاح محاولاته الأدبية الأولى ، وقال إنه ارتمى فى حضن الأدب كأنه بطة ترتمى فى الماء . لقد أفاده الطب فى فهم الكثير عن الإنسان ، ورآه عاريًا من الثياب والادعاء والمناصب الاجتماعية فى لحظات الألم والاحتضار والأمل ، لكن مهمته انتهت عند هذا الحد ..

القصة المبكرة له والتى صنعت شهرته هى (ليزا من لامبيث) ، وهى قصة تنتمى لأدب الواقعية الاجتماعية عن الانحلال الأخلاقى فى الطبقة العاملة ، وقد استلهم أحداثها من عمله كطبيب فى الأحياء الفقيرة . ولمدة عشر سنوات لم تحظ قصة له بذات النجاح قط . لكن فى العام 1907 نجحت مسرحية له هى (ليدى فردريك) ، من ثم صارت أربع مسرحيات له تعرض فى لندن فى الوقت ذاته .

تطوع فى جيش بلده بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وقد منحته هذه التجربة خبرات كبيرة . تلك هى الفترة التى كتب فيها قصتنا الحالية (عن عبودية الإنسان ـ 1915) وهو فى الخنادق قرب دنكرك . يعتبرها النقاد أهم وأفضل قصة له ، وهى سيرة ذاتية دقيقة عن حياة موم برغم أنه ظل ينكر هذا دومًا .. على أنه كتب فيما بعد : « الحقيقة والخيال يختلطان فى أعمالى ، لدرجة إننى

بعد كل هذه الأعوام صرت عاجزًا عن تمييز ما هو وليد خيالى وما حدث فعلاً .. » ، وقد تحولت إلى فيلم رائع أخرجه جون كرومويل عام 1934 وقامت ببطولته (بيتى ديفيز) فى دور ملدريد ، وهو دور يسيل له لعاب أية ممثلة بارعة . على أنه بعد هذا تطوع ليكون جاسوسًا وسافر إلى سويسرا ليعيش هناك بصفته كاتبًا لكنه كان فى الحقيقة يمارس كل طقوس الجاسوسية ، وقد خلد هذه التجربة فى أعماله عن طريق شخصية الجاسوس البريطانى الأنيق الغامض (أشندن) ، وهو الخيط الذى سرقه (إيان فلمنج) بشكل صبيانى سطحى فى شخصية (جيمس بوند) .

سافر للمحيط الهادى بعد الحرب ليعد لروايته (القمر وستة بنسات) وهى الرواية الخالدة التى ترجمت عن دار الهلال ، وتحكى قصة حياة الفنان (جوجان) . من هنا بدأت شهرة موم ككاتب كثير الترحال يمثل آخر أيام الإمبراطورية الإنجليزية .

لم ينل موم رضا النقاد قط ، والسبب هو أنه سهل واضح فى زمن صار الغموض والتجريب فيه هما اسم اللعبة . وقد اعترف بذلك فى مذكراته . كما قيل إنه ذاتى جدًا يميل لإدخال كل شىء إلى عالمه الخاص . فى كتاب الدكتور رشاد رشدى عن القصة القصيرة ، يبين لنا الناقد الكبير أن موم ارتكب فى قصصه القصيرة كل الأخطاء الممكنة التى يحذرنا الكتاب منها ! أى إنه يستعمل موم كمثال يبين بالضبط ما على الكاتب ألا يفعله ! موم بنفسه قال إنه

(فى موضع متقدم جدًا بين كتاب الصف الثانى) . من ضمن رواياته الشهيرة كذلك (سادى طومسون)/ (الأمطار) و(حد الموسى) و(كعك وجعة) و(الساحر) عن حياة كراولى الساحر البريطانى الشيطانى ، وقد ترك خلفه جيشًا من الغاضبين الذين عرفوا أنفسهم فى هذه القصة أو تلك ولم يرق لهم ما قرءوه .

بعد طلاقه ، اتخذ من فرنسا محطة انطلاق وابتاع فيلا فى الريفيرا عاش فيها بقية حياته ، ومنها رأى العالم كله . بالواقع كان من أكثر الكتاب نجاحًا وثراء ، وقد حقق ثروة ضخمة من قلمه . لما توفى أوصى بحرق جثته وهكذا ليس له قبر يعرفه الناس .

ما بين يديك الآن هو ملخص الرواية وليس الرواية نفسها ، مع بعض (تقليم الأظفار) الحسى والدينى طبعًا ، وآمل أن الرواية احتفظت بشىء من عطرها الأصلى بعد هذا باعتبارها أهم رواية لموم . يمكن للمهتمين بقراءة نص القصة الكامل (بالغ الطول) تحميلها من هنا :

http: //www. gutenberg. org/etext/351

د . أحمد خالد

1

أصبح النهار رماديًا كئيبًا ، وفى السماء استقرت سحب متثاقلة بينما كان فى الجو ما يشى بقرب انهمار الجليد . دخلت خادمة إلى الغرفة التى كان الطفل يغفو فيها وجذبت الستائر . نظرت إلى المنزل المقابل ذى الرواق والمزخرف بالجص ، واتجهت لفراش الطفل :

ـ « انهض يا فيليب .. أمك تريدك .. »

وجذبت الملاءة وأخذته بين ذراعيها ، وحملته إلى الطابق السفلى وهو نصف مفيق . فتحت باب غرفة فى الطابق السفلى ، وأخذته إلى فراش ترقد فيه امرأة . كانت هى أمه . مدت ذراعيها له لكن الطفل لم يسأل لماذا أيقظوه . لثمت المرأة عينيه وتحسست بيدها الصغيرة الجسد الدافئ من فوق منامته البيضاء . ألصقته بجسدها وسألته :

ـ « أنت نائم يا عزيزى ؟ »

صوتها كان بعيدًا واهنًا لكن الطفل ابتسم مستريحًا فى الفراش الكبير الدافئ وحاول أن ينكمش أكثر . سرعان ما نام من جديد عندما دخل الطبيب الغرفة فقالت المرأة :

ـ « أوه .. لا تأخذوه بعد .. »

لم يجب الطبيب ونظر لها بخطورة ، وكانت تعرف أنها لن تقدر على الاحتفاظ بالطفل أكثر فقبلته وتحسست أصابع قدمه الصغيرة ، ثم تهاتفت . أخذه الطبيب وكانت أضعف من أن تقاوم فناول الطفل للممرضة . كانت الأم تبكى بحرارة :

ـ « ماذا سيحل به هذا المسكين ؟ »

لم يرد الطبيب واتجه لركن الغرفة ، وهناك تحت منشفة كان جسد وليد ميت . راح يتفحص الجثة فهمست متسائلة :

ـ « هل هو ولد أم بنت ؟ »

ـ « ولد آخر .. »

تحسس الطبيب نبض المرأة ، ثم قال :

ـ « لا أحسب بوسعى عمل شىء الآن .. سوف أعود بعد الإفطار .. »

اتجه الطبيب لباب الخروج مع مربية الطفل ، وهناك توقف وسألها :

ـ « أنت استدعيت لأخا زوج السيدة (كارى) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى يا سيدى .. أنا بانتظار برقية .. »

ـ « أرى أن يتم نقل الطفل .. »

ـ « مس (واتكينس) سوف تقوم بهذا .. إنها جدته .. ولكن هل تعتقد أن مسز (كارى) ستشفى يا دكتور ؟ »

نظر لها الطبيب ولم يقل شيئاً ..

2

بعد أسبوع جلس (فيليب) على أرض غرفة الجلوس في منزل مس (واتكنس) في حدائق (أونسلو). كان طفلاً وحيدًا من ثم اعتاد أن يسلى نفسه بنفسه. كانت الغرفة مكتظة بالأثاث وفوق الأريكة ثلاث وسائد كبيرة. بهذه الوسائد وغيرها صنع لنفسه كهفًا كبيرًا اختبأ فيه من الهنود الحمر المتوارين خلف الستائر. عندما كان يلصق أذنه بالأرض كان يسمع حوافر الجاموس البرى عبر البرارى، ثم سمع الباب ينفتح فكتم نفسه حتى لا يكتشفه أحد. لكن يدًا حازمة أمسكت به وأخرجته :

ـ « أنت أيها الطفل الشقى .. مس واتكينس ستتضايق مما فعلته .. »

وراحت ترفع الوسائد وهى تتوقع أن يوجه لها السؤال الذى أعدت إجابته، لكنه لم يسأله. فى النهاية قالت له :

ـ « ألن تسألنى أين أمك ؟ »

ـ « أين هى ؟ »

ـ « هى سعيدة وبخير .. لكنها رحلت .. لن تراها ثانية أبدًا .. »

لم يفهم الطفل، فقالت له :

ـ « أمك فى السماء .. »

وبدأت تبكى .. لم يفهم فيليب ما تقول إلا أنه بكى ايضًا . احتضنته وهى تتألم لفكرة أن هذا الصبى فقد الحب الوحيد غير الأنانى فى العالم . قالت له :

- « عمك ويليام فى انتظارك .. اذهب وقل (مساء الخير) لمس (واتكنس) ثم نعود للبيت .. »

- « لا أريد أن أقول مساء الخير .. »

- « ليكن . اهرع إلى الطابق العلوى واجلب قبعتك .. »

ثم إنه أعاد التفكير فقرر أن يحيى جدته والنسوة المجتمعات فى غرفة المكتب .. هكذا طلب من الخادمة أن تخبرهن بأنه يريد أن يلقى تحية المساء .

كانت (هنرييتا واتكنس) امرأة مكتنزة لها وجه محمر وشعر مصبوغ . كانت تعيش مع شقيقتها المسنة فى هذا البيت ومعها فى الغرفة نسوة لم يعرفهن ينظرن له فى فضول . فتحت له مس واتكنس ذراعيها وهتفت :

- « يا طفلى المسكين .. »

وبدأت تبكى .. هنا فهم لماذا تلبس الأسود ولماذا لم تتناول الغداء . قال لها :

- « يجب أن أعود للبيت .. »

هنا احتضنته أختها وبكت .. كان يتمنى لو بقى أكثر لأنه بدأ يستمتع بكل هذا الكم من العواطف التى يسببها من حوله لكنه أدرك أنهن يرغبن فى رحيله . خرج ينتظر عودة المربية (إما) هنا سمع النسوة يتكلمن :

ـ « الطفل المسكين .. من العسير أن يدرك المرء أنه وحيد فى هذا العالم .. لاحظت أنه يعرج .. »

ـ « نعم .. يعرج ... كان هذا مصدر حزن دائم لأمه .. »

هنا عادت إما واستدعت عربة بخيول تقلهما إلى البيت ..

* * *

كان البيت الذى توفيت فيه مسز (كارى) يقع فى بقعة محترمة كئيبة بين شارعى (نوتنج هيل) و(هاى ستريت) . هناك كان العم جالسًا يرسل خطابات شكر لمن أرسلوا له باقات أزهار . انحنى فصافح الطفل ثم أعاد التفكير فقبله على جبينه ، وقال :

ـ « أنت سوف تعيش معى يا فيليب .. هل يروق لك هذا ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « سوف تكون لى وعمتك (لويزا) كما كنت لأبيك وأمك .. »

عندما عرف بنبأ احتضار زوجة أخيه جاء مسرعًا إلى لندن وهو يفكر فى الاضطراب الذى سيسببه هذا فى حياته ؛ لأنه مرغم

على أن يربى ابن أخيه . كان متزوجًا ولم ينجب لذا لم يتحمل فكرة الفوضى التى سيسببها طفل فى البيت .

ـ « سوف آخذك معى غدًا . يؤسفنى أن إيما لن تكون معك .. »

هنا راح الطفل يبكى ، ولم تستطع الممرضة إلا أن تبكى معه . كان العم قد اجتمع منذ ستة أشهر مع محامى الأسرة ، وكان والد فيليب جراحًا ناجحًا لهذا دهش العم عندما توفى أخوه بتسمم الدم ، ووجد أنه لم يترك لأرملته سوى مبلغ التأمين على حياته . حاولت الأرملة أن تدبر أمورها فلم تجد سوى ألفى جنيه للطفل حتى يتمكن من أن يكسب عيشه بنفسه .

كان مستحيلاً شرح هذا كله لفيليب الذى كان يبكى فى حرارة .

ـ « سوف نرحل السبت لأن على أن أكتب موعظة الأحد .. يمكنك أن تحضر معك ألعابك وشيئًا واحدًا يذكرك بأمك وأبيك ، لأن كل شىء عدا هذا سوف يُباع .. »

راح الصبى يبكى دافنًا وجهه فى صدر (إيما) ، وهى تقاوم البكاء لأنها تشعر بأنه طفلها هى ، خاصة وهى تربيه منذ كان عمره شهرًا .. راحت تعده بأنها سوف تأتى لزيارته يومًا . وراحت تحكى له عن بيتها فى ديفونشاير وعن مزرعة أبيها حيث توجد خنازير وبقرة ، والبقرة أنجبت عجلاً .. هكذا نسى الصبى دموعه ، وسرعان ما كان يلعب مسرورًا .

كان باب غرفة أمه مواربًا فمد يده يفتحه قليلاً. كانت الغرفة تسبح فى ضوء يناير الشاحب، وأشياء أمه هنا وهناك .. فتح خزانة الثياب وغاص فى ثياب أمه المعلقة هناك وهو يشم رائحتها. ليس صحيحًا أن أمه لن تعود أبدًا .. هذا غير صحيح لأنه ببساطة مستحيل ..

أمه سوف تعود .. تسلق إلى الفراش وأراح رأسه على الوسادة وأغمض عينيه.

★ ★ ★

3

كانت بلاكستابل على بعد ستين ميلاً من لندن . ثم إن مستر (كارى) عمه مشى معه إلى بيته الذى هو مقر القس وهى مسافة استغرقت نحو خمس دقائق . كانت زوجة عمه تنتظر على الباب وهى امرأة فى سن عمه لها عينان زرقاوان شاحبتان ووجه مليء بالتجاعيد لحد غير معقول . كانت خجولاً مهذبة .. أخذته إلى الطابق العلوى وأرته فراشًا صغيرًا يطل على الطريق .

- « غرفة صغيرة لولد صغير.. أنت لن تخاف من النوم وحدك ؟ »

- « لا .. »

لم تكن تعرف أى شيء عن الأطفال .. كان مجيئه يجعلها عصبية وقد وجدت أنها تخجل منه كما أنه يخجل منها . لم تكن تسافر لأن دخلهما 300 جنيه فى العام ، وعندما كان زوجها يرغب فى الترفيه كان يسافر وحده لأنه ما من مال يكفى اثنين . كان يحضر مؤتمرات الأساقفة ، وذات مرة سافر إلى باريس ومرة أخرى سافر إلى لندن .

طلب منها القس أن تعد لهم بيضة لأن الصبى جائع ، ووضعوا له بعض الكتب على المقعد ليجلس عليها ، ثم تلا العم صلاة المائدة .

كسر بيضته وسمح للصبى بأن يأكل قمتها . كان فيليب راغبًا فى بيضة كاملة بطبيعة الحال لكنه لم يجسر على طلب ذلك ، فنال منها قدر ما يستطيع ..

قال العم :

ـ « سوف تنال واحدة أخرى مساء الأحد .. »

كانت زوجته تعد له بيضة مع الشاى مساء الأحد لتقويه على صلاة المساء ..

* * *

فى الأيام التالية لم يتعلم فيليب الكثير عن القوم الذين يعيش معهم فحسب بل عرف الكثير عن أهله ونفسه . كان أبوه جراحًا يكسب الكثير من المال ، ولما طلب منه أخوه القس بعض المال للكنيسة أرسل له مائتى جنيه .. هذا ترك القس نهبًا لعواطف متضاربة من حسد أخيه الذى يمكنه الاستغناء عن مبلغ كهذا ، مع السعادة للمال الذى حصل عليه لكنيسته . تزوج الطبيب مريضة كريمة المحتد وإن لم تحظ بأسرة كبيرة . وكان القس يزور الزوجين فيندهش من كل هذا البذخ الذى يعيشان فيه : أزهار فى غرفة الجلوس فى كل وقت .. عناقيد عنب لابد أن الواحد منها ثمنه عدة شلنات .. أناقتها تفوق أناقة زوجة جراح .

الآن يدفع هذا الطفل ثمن بذخ أبويه .. ومن حسن الحظ أن الأم ماتت مبكرًا بعد زوجها ؛ لأنها لم تكن تعرف عن المال أكثر من طفل .

كانت الحياة تمضى مملة مع زوجة عمه والخادمة مارى آن التى تصر على أنه لا يستطيع أن يستحم وحده ، لكنه كان يرفض فى إباء أن تقوم امرأة عمه بغسل جسده .

كان عمه يعلمه الرياضيات واللغة اللاتينية مع أنه يجهل كليهما .. وعمته تعلمه الفرنسية وعزف البيانو . كانت تجهل الفرنسية لكنها كانت جيدة فى العزف فعلاً . وكان الزوجان يشربان الشاى وحيدين ثم يلعبان الطاولة بعدها ، وكانت الزوجة تحرص على أن يربح زوجها لأنه يمقت الخسارة .

روتين الحياة كان يتغير نوعًا يوم الأحد لأنه يوم الموعظة فى الكنيسة . وكان اليوم يبدأ مبكرًا جدًا . يرتدى القس أفخر ثيابه ويشرب بيضة نيئة مخفوقة يعتقد أنها مهمة من أجل صوته ، والزوجة تلبس ثيابًا سوداء لأنه يصر على أن زوجته لا يمكن أن تلبس شيئًا ملونًا ، وقد تحايلت على تزيين البونيه الذى تضعه على رأسها بريشة بيضاء ، لكنه أصر على أن تنزعها لأنه لا يطيق أن يذهب للكنيسة مع امرأة رقيعة .

بعد الموعظة يعودون للبيت حيث يتأهب القس لصلاة المساء ، وبعد الصلاة يجلسون جوار النار .. وسرعان ما يغلب النعاس فيليب فينام ولا يهتم بأن مارى آن تبدل له ثيابه .. كان قد بدأ يحبها .

* * *

4

عاش فيليب فى الدار عيشة طفل وحيد ، فلم يكن له صديق إلا مارى آن وهى فتاة مكتنزة فى الخامسة والثلاثين جاءت هنا فى سن الثامنة عشرة ولا نية لها للذهاب إلى مكان آخر . لكنها كانت تهدد سيدها وسيدتها بالزواج دومًا كأنه سوط معلق فوق الرءوس . لكن فيليب كان يفضل صحبتها فى المطبخ على غرفة الجلوس ، وكان يأخذ ألعابه هناك كثيرًا . هذا ضايق زوجة عمه التى كانت ترى فى هذا عدم لياقة . كان قلبها يرق للطفل اليتيم لكنها عاجزة عن إظهار حبها له . لم تستطع فهمه كذلك فقد كانت تسمع ضحكاته من المطبخ فإذا دخلت وحاولت أن تعرف النكتة لم تجد فيها أى شىء مضحك . كانت تخاف الأطفال أحيانًا وقد خطر لها أن الله حرمها من الحصول على طفل لسبب قوى .

ذات مرة حدثت مشكلة لأن الصبى دخل غرفة الجلوس وراح يلعب بينما عمه نائم . استيقظ العم من نومه وانفجر فى لوم الصبى على أنه يلعب فى يوم الأحد .. يوم الراحة .. إنه بهذا

يغضب الله ويعذب روح أمه فى السماء . لسبب ما تجمد الصبى ورفض فى عناد أن يعتذر ..

عاقبه العم بأن حرمه من الذهاب معه إلى الكنيسة ، وانصرف وحده تاركًا إياه مع زوجته . حاولت المرأة أن تسرى عنه لكنه انفجر فى البكاء وصاح :

- « أنا أكرهكما ..! أتمنى أن تموتا ! »

قالها فى توحش وعصبية حتى إن المرأة الرقيقة جلست إلى مقعد وأخرجت منديلها وراحت تبكى .. هكذا رق قلب فيليب وزحف نحوها وطبع على جبينها قبلة . أول قبلة يطبعها على جبينها من دون أن يطلب أحد ذلك منه . عندها احتضنته وأدركت أنها تحبه بالفعل .. كان مما يخيفها فى الطفل أنه لا يظهر عواطفه أبدًا .. لم تره يبكى من قبل .

لاحظت أنه يزداد تعاسة فطلبت من العم أن يعطيه كتابًا يحوى بعض الصور . كان العم يهوى اقتناء الكتب بشدة لكنه لا يقرؤها أبدًا لأنه فقد عادة القراءة .. كان يحب فقط أن يتصفح الصور ويعيد تجليد هذه الكتب القديمة . اختار للصبى كتابًا عن فلسطين

يظهر مشاهد من ميلاد السيد المسيح . وهكذا راحت السيدة تعرض الصور على فيليب وهى تحكى له ، وقد قدرت أن اهتمامه لهذا الحد بموضع ميلاد المسيح يدل على أنه شخصية تقية .. راحت تحكى له عن بلاد بعيدة وعن العرب وعن البدو والمساجد . هكذا وجد الصبى مصدر متعة لا يوصف وسرعان ما نسى ألعابه . سرعان ما كان يطلب كتابًا آخر .. هذه المرة كان كتابًا عن روما وقد راح الصبى يشاهد الصور ويلتهمها بعينيه ، ثم راح يحاول قراءة ما كتب قبل الصورة ليعرف سبب وجودها فى النص .

سرعان ما وجد ترجمة ألف ليلة وليلة ، وقد بدأ قبل كل شىء بقراءة قصص السحر فيها .. وسرعان ما انغمس فى ألذ عادة فى العالم : القراءة .. حتى صار عليهم أن ينادوه ثلاث مرات من أجل العشاء . عندما جاء الصيف صنع له البستانى سريرًا معلقًا بين شجرتين ، وهناك كان يتوارى ويقرأ ويقرأ غير شاعر بمرور الوقت ..

* * *

قرر العم أن ينتقل (فيليب) للدراسة في مدرسة داخلية هي (كنجز سكول) في (تيركانبوري) ، وهي مدرسة دينية . هكذا بدأ فصل جديد من حياة الطفل . كان مدير المدرسة هو مستر (واتسون) وهو من أصدقاء العم . وقد رحب بفيليب وأخبره أنه سيقيم في عنبر مع ثمانية أولاد آخرين ، ثم اقتاده ليقدمه إلى تلميذ صغير يلعب في الفناء ليكون صديقه .

كان أول ما فعله الصبي هو أن نظر إلى فيليب وإلى قدميه وسأله :

ـ « ما بال قدمك ؟ »

حاول فيليب أن يخفي قدمه وراء الأخرى السليمة ، وقال :

ـ « عندي قدم مشوهة .. »

ـ « وما السبب ؟ »

ـ « هي كذلك منذ ولدت .. »

ـ « إذن أرها لي .. »

ـ « لا .. »

ركله الصبى على قصبة رجله ركلة لـم يتوقعها فيليب . وبالتالى لم يتحسب لرد بالإضافة إلى أن الصبى كـان أصغر منـه بكثير ، وهو تعلم أنه لا يجب أن تضرب من هو أصغر منك .

ظهرت دستة من الأطفال يحيطون به ، وأدرك أنهم جميعًا ينظرون لساقه . ثم بدءوا يتكلمون .. كان بحاجة إلى أن يتكلم بحرارة معهم لكنه لم يجد أى شىء يقوله .

* * *

5

استيقظ فى الصباح المبكر على صوت غناء. هنا تذكر أين هو. كان العنبر مغلقًا تمامًا لأن أحدًا لم يكن يهتم بالتهوية فى تلك الأيام، وكانت ستائر كثيفة تفصل كل فراش عن الآخر. ركع جوار الفراش وتلا صلاته وهو يشعر ببرد شديد. لكن عمه كان قد علمه أن الله لا يقبل صلاته إلا وهو بثوب النوم لا ثياب الخروج، وقد جعله هذا يعتقد أن الله يحب ألا يشعر عباده براحة.

فى قاعة الطعام جلسوا بانتظار مستر (واتسون) الذى جاء مع زوجته، وتلوا صلاة المائدة. ثم جاء الشاى ومعه الخبز والزبد .. كان بعض الأولاد يحملون مأكولات إضافية من بيوتهم مثل اللحم وغيره، لكن عم فيليب رفض أن يترك له شيئًا كهذا لأنه يؤمن بأن أفضل شيء يأكله الشباب هو الخبز والزبد، أما باقى الآباء فيفسدون أولادهم.

هكذا بدأ اليوم الدراسى .. فى وقت الطعام راح الأطفال يلعبون لعبة (الخنزير وسط الدائرة)، حيث يطارد الأكبر سنًا صغار السن فى دائرة، وجاء الدور على فيليب وبالطبع لم يتمكن من الجرى، لكن مشيته العرجاء جعلت الصبية يضحكون .. اكتشفوا لعبة جديدة فراحوا يسخرون من مشيته ويقلدونه بأسخف أنواع

المشيات . حتى إن بعضهم سقط على الأرض وراح يتلوى من فرط الضحك . ولم يفهم فيليب قط لماذا يسخرون منه .. أصابه الرعب وكاد يعجز عن التنفس ..

عندما جاءت فترة الفسحة الثانية ذهب الأولاد للعب الكرة لكن المدير قال لفيليب إن عليه أن يبقى لأنه لن يستطيع لعب الكرة ..

وفى المساء انقض عليه الصبى المدعو سينجر وصاحبه مصرين على أن يروا رجله . التف بثيابه لكنهما تزاحما عليه وكادا يمزقانها فصاح :

ـ « لم لا تتركاننى وشأنى ؟ »

ـ « لابد من أن نرى قدمك المشوهة .. »

ودارت معركة وجه فيها فيليب بعض اللكمات لكن ميزان القوة لم يكن فى صالحه قط . وسرعان ما لوى أحد الصبية يده خلف ظهره وأرغمه على أن يريهما قدمه وراح الصبية يلمسونها فى انبهار ورعب كأن لها حياة خاصة بها ..

ـ « أليست مرعبة ؟ »

هنا سمعوا خطوات مستر (واتسون) وهو يمشى بين العنابر يسترق النظر ليتأكد من أن كل شىء على ما يرام . هكذا ركضوا

جميعًا كالأرانب كل واحد إلى فراشه . أما فيليب فظل منكمشًا فى الفراش يعض الوسادة كى لا يسمع أحد نشيجه .. لقد أدرك الآن مدى تعاسة حياته وبدا له أنها ستظل كذلك إلى الأبد ..

خطر له أن كل هذا حلم .. أمه ما زالت حية وهو ما زال فى فراشه وسوف توقظه إيما فى الصباح وتحتضنه .. أراحته هذه الفكرة ، لكنه فتح عينيه فى الصباح فرأى أول ما رأى الستائر الخضراء التى تفصل فراشه عن بقية الأسرة ..

* * *

طيلة الفصل الدراسى ظل سينجر يتحرش بفيليب برغم أن الأخير حاول أن يبقى بعيدًا عنه ، لكن المدرسة كانت صغيرة بحيث كان تحاشيه مستحيلاً . كان سينجر هو الطرف الأقوى ومهما قاومه فيليب بعنف كان يهزم بعد محاولة أو اثنتين ويطلب الصفح . أدرك فيليب أن عليه أن يتحمل الحياة عامين مع معذبه الذى لا فرار منه ، وحتى يدخل سينجر المدرسة الثانوية .

الآن صار فيليب فى الثانية عشرة من عمره ، وقد بدأ الصبية يسئمون السخرية من عاهته وظهر تفوقه الدراسى ونال عدة جوائز ، لكن عاهته نجحت فى جعل الصبية لا يحقدون عليه . كانوا يقولون : من السهل عليه أن يتفوق .. فلا شىء يمكنه عمله سوى أن يستذكر ..

كان فيليب الآن يفهم جسده أكثر ويعرف ما له وما عليه .. يدرك عاهته واختلافه عن الصبية الذين يملكون كل ما من شأنه أن يجعلهم سعداء .. يرقصون فى الحفلات ويلعبون كرة القدم ، ومن أجلهم سمى الإنسان حيوانًا اجتماعيًا .

مرت أيام الدراسة رتيبة ، فلم يضايق فيليب واحد جديد من زملائه . كما أن إعاقته منعته من اللعب لكنها كذلك جعلته غير ملحوظ ، وهذا راق له . لم يكن ذا شعبية وكان وحيدًا جدًا كذلك .

عندما كان يدرس كان يرى نيران الجحيم تتوهج أمام عينيه لو أن روحه ضلت الطريق .. كان إيمانه بالعذاب الأبدى قويًا يفوق إيمانه بالنعيم الأبدى .

كان قد بدأ يشعر بميل للمدير الجديد الشاب مستر بركنز الذى دافع عنه أكثر من مرة ؛ لذا قال له :

- « عمى يريد أن أرسم كاهنًا .. »

- « وهل أنت سعيد بهذا ؟ »

نظر فيليب لبعيد ولم يجسر على أن يقول إنه لا يجد نفسه أهلاً لذلك ..

قال له مستر (بيركنز) :

ـ « لا أعرف حياة سـعيدة مثل تلك التى نحياها ..إن بوسع المرء أن يخدم الرب فى كل شىء يفعله ، لكننا قريبون منه أكـثر من سوانا . لا أريد أن أؤثر فى قرارك لكن أتمنى لو أدركت كمَّ السعادة والرضا هنا .. »

ثم خط بالقلم خطوطًا على ورقة أمامه ، وقال فى ارتباك :

ـ « يجب أن تفهم أن خياراتك محدودة نوعًا بالنسبة لمستقبلك .. بسبب حالتك الصحية .. »

احمر وجه (فيليب) كما كان يحدث فى كل مرة يشار فيها إلى عرجه . قال المدير :

ـ « طالما نظرت لعاهتك كعار فستظل كذلك .. فكر فيها كصليب اضطررت إلى حمله لأن كتفيك قويان ويتحملانـه .. يجب أن تشكر الرب على هذا .. »

كان الفتى قد تعلم أن لكلماتـه قوة ساخرة مـا ، وهكذا تميز بالسخرية ، وإن ظل دومًا على مسـافة من أترابـه لأن ذكريـات التحرش به لم تفارقـه . وبرغم تفوقـه الدراسى فإنـه كـان علـى استعداد لأن يتخلى عـن تفوقـه مقابل أن يستبدل بموقعـه موقـع أغبى صبى فى المدرسة ما دام هذا الأخير لا يعرج .

كان هناك صبى واحد اسمه (روز) لم يهتم بعاهته وصار صديقًا حقيقيًا له . هكذا أدخله إلى دائرة الفتية ، وشعر فيليب بأن المدرسة مكان جميل فعلاً . لكن فى العام التالى بدأت المشادات بينهما لأن فيليب كان غيورًا على صاحبه هذا ، غير راغب فى أن يصادق آخرين . وبدا أن الصداقة لم تعد كما كانت وأن (روز) يصادقه فقط بدافع الواجب أو العادة القديمة . ثم أصيب فيليب بالحمى القرمزية وتغيب عن المدرسة ثلاثة أشهر ، وهى فترة طويلة جدًا فى حياة صبى المدرسة ، هكذا عاد للمدرسة ليجد أن روز اتخذ لنفسه صديقًا آخر ونسى كل شىء عنه .

* * *

6

الآن صار فيليب فى الصف السادس لكنه كان يمقت المدرسة من الأعماق . فى كل صباح يستيقظ من النوم عاجزًا عن تحمل يوم جديد من الأوامر والقيود ، ولم يعد يهتم ما إذا كان يحقق نجاحًا أم لا . لقد تدهورت جدًا فرصته فى أن ينال منحة مدرسية تسمح له بالدراسة فى أكسفورد . وقد سأله مستر (بيركين) وهو يتخلل لحيته بأنامله :

ـ « ماذا دهاك مؤخرًا ؟.. لم أعد راضيًا عن أدائك فى المدرسة ..»

لم يستطع أن يخبره بأنه موشك على الموت مللاً .

ـ « أعرف أن بوسعك عمل أى شيء إذا أردت ذلك ، لكن من الواضح أنك لم تعد تريد .. »

الحقيقة أن الحياة بدت له مملة رتيبة ، وقد ارتجف خوفًا من فكرة أن يقضى بقية حياته فى هذا المكان ..

أدركك مستر (بيركنز) أن كلامه مع الفتى غير ذى جدوى ، فكف عن الكلام معه بقية الصف الدراسى وإن كتب عنه تقريرًا سيئًا أعطاه الفتى لعمه وزوجته ، فقال العم :

ـ « ماذا فى هذا التقرير ؟ »

قال الفتى :

ـ « تقرير سيئ .. فى الحقيقة أنا راغب فى الذهاب إلى ألمانيا وترك هذه المدرسة ! »

ـ « من أين أتيت بهذه الفكرة الغريبة ؟ »

كان له صديق يدعى (شارب) قد ترك المدرسة وسافر إلى هانوفر . لقد بدأ حياة جديدة أصابت فيليب بالتوتر عندما فكر فيها ..

سأله العم :

ـ « إذن أنت لن ترسم ككاهن ولن تذهب لأكسفورد ؟ »

ـ « لا أحسب هذا فى وسعى .. »

انفجرت زوجة عمه فى البكاء مما جعل قلبه يرق .. كان العم قد وضع خططه على أن يكون فيليب فى أكسفورد فى سن الثامنة عشرة . ولما انصرف العم حاول فيليب أن يطيب خاطرها لكنها قالت وهى غارقة فى الدموع :

- « حسبنا أننا سوف نجعل منك كاهنًا .. وعندما يأتى حيننا .. نحن لن نعيش للأبد .. حسبنا أنك ستتولى هذا المكان .. »

توقف فيليب وقد شعر بذعر يعتصر قلبه . سألته المرأة :

- « وماذا تنوى أن تكونه فى المستقبل ؟ »

- « لا أدرى .. لكن فى جميع الأحوال سوف أستفيد من الإلمام بلغة أجنبية .. دعك من أننى قد أكسب مالاً فى ألمانيا أفضل مما أحققه هنا .. »

كان يشعر أن أكسفورد هى امتداد للمدرسة بشكل آخر . وهو يريد أن يبدأ بداية جديدة فى مكان لا يعرفه فيه أحد .

من المصادفات الغريبة أن هذا توافق مع أفكار بدأت تُطرح فى (بلاكستابل) عن عدم جدوى نظم التعليم الحالى ، وأن تعلم

اللغات يكتسب أهمية كبرى . دارت مناقشات طويلة مع العم لكنه كان يعتبر التجربة خطرة ، وقد قرر أن يعود فيليب لمدرسة (تيركانبورى) لفصل دراسى آخر قبل أن يسمح له بالسفر، وكانت هذه نتيجة أفضل مما يحلم به (فيليب) .

لكنه إذ عاد إلى المدرسة وجد أن المدير تلقى خطابًا مفصلاً من عم الفتى يسأله الرأى . كان المدير غاضبًا وقال لفيليب إن هذا أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه .

اغتاظ فيليب .. فقد شعر بأنه كان قد أنهى الكلام مع عمه حول هذا الموضوع ، لهذا عاد لغرفته وكتب لعمه خطابًا غاضبًا لم يتحفظ فيه فى الألفاظ .

هكذا تلقى بعد ثلاثة أيام خطابًا من زوجة عمه تخبره أن هذا الأخير متضايق جدًا ، وإنه بالتأكيد لا يستحق هذه الكلمات القاسية ، وإن فيليب لو بلغ ما بلغاه من العمر لأدرك أن هذا هو الصواب .

اعتصر فيليب قبضته فى غيظ .. لماذا يعتبران أن تقدم سنيهما يعنى بالضرورة المزيد من الحكمة ؟ . كتب لها فى غلظة

إن المال الذى ينفقانه على تعليمه هو ميراثه من أبيه وبالتالى ليس من حقهما التدخل فى كيفية الإنفاق .

استغرق الأمر الكثير من المشادات والمناقشات ، إلى أن كتب العم خطابًا لمدير المدرسة يخبره فيه أن ابن أخيه يعانى مللاً شديدًا ، وأنه يرغب فعلاً فى ترك المدرسة .

لم يجد المدير ما يقول سوى أن طلب من فيليب أن ينتظر حتى عيد الفصح قبل أن يذهب إلى ألمانيا .

شعر فيليب بالرضا عما حققه فى ثلاثة الأشهر الأخيرة ، ولم تعد المدرسة تبدو له مملة وقد عرف أنه تاركها عما قريب . راح يراقب التلاميذ وهو يشعر بسرور لأنه لن يراهم بعد هذا ، وشعر بأنه لا يحمل ضدهم ضغينة ما .

جاء موعد الرحيل فدخل ليودع مستر (بيركنز) الذى نظر له فى دهشة ، وقال :

ـ « إذن أنت جاد فعلا ؟ »

شعر فيليب بأنه خُدع فالرجل وعد بأنه لن يتدخل ثانية . قال له :

ـ « لقد تم ترتيب كل شيء لرحيلى إلى ألمانيا يا سيدى .. »

- « لكن كل شيء ممهد لظفرك بمنحة فى مدرسة (ماجدالين) .. كما أن بوسعك أن تذهب إلى أكسفورد . لا تتصور أية حياة رائعة تنتظر من يتمتعون بتفوقك هناك . لا تتصور كم يسعد المعلم أن يجد الطالب الذى يفهم ما يريد قوله .. »

احمر وجه فيليب فقد كان ممن لا يتحملون الإطراء . الحقيقة أنه بدأ يضعف وهو يفكر فى أكسفورد ، وما كان على المدير إلا أن يضغط عليه أكثر قليلاً ليغير خططه ويبقى ، لكنه كان يعرف أنه سيبدو أحمق فى نظر نفسه لو غير خططه .

هكذا صافحه الرجل ، وقد شعر بأنه سيضيع وقته لو راح يتجادل مع شخص عنيد كهذا .

شعر فيليب بالرعب .. لقد انتهت أيام المدرسة فعلاً . لا يعرف إن كان اختار الصواب أم الخطأ .. ربما كان من الأفضل ألا يكون أحمق إلى هذا الحد .. لا يمكن أن يعود للمدير ليخبره أنه غير رأيه . هذه تكون إهانة لا يتحملها ..

انتابه اكتئاب شديد مع حالة عدم رضا تام عن نفسه ..

* * *

7

فى يوم من مايو وصل (فيليب) إلى (هايدلبرج) .

إذ غادر محطة القطار ، كانت السماء زرقاء ساطعة والأشجار عليها أوراق كثيفة . كان يستشعر بإثارة عظمى لتجربة حياة جديدة مع أغراب . كان سيقيم فى بيت أحد الأساتذة الألمان مما يتيح له مزيتى السكن وتعلم اللغة أكثر ، وقد استقبلته زوجة الأستاذ وكانت امرأة قصيرة القامة لها عينان لامعتان كخرزتين .

كان البروفسور نفسه رجلاً ذا لحية قصيرة ، ويستعمل إنجليزية لم يتعلمها من الحياة لكن من الأدب الإنجليزى ؛ لذا كان من الغريب أن تسمعه يتحدث مستعملاً مصطلحات شكسبير .

فى البنسيون كان هناك ستة عشر نزيلاً . وكانت السيدة ترغم الجميع على استعمال الألمانية على مائدة العشاء لهذا اضطر فيليب للصمت .

بدأت علاقته تتوطد بابنتى الأستاذ الألمانى ، وهما فتاتان جميلتان .. لم يكن قد قابل فتيات فى حياته قط ، وبرغم أنه ظل يبحث عن شىء يقوله للفتاتين فإن عقله كان يبقى خاويًا مهما حاول . إحدى الفتاتين كانت توجه له الكلام وكان يفهم بعضه ، أما الأخرى فكانت تنظر له بلا كلام ثم تنفجر فى الضحك فجأة فيدرك أنه يبدو لها سخيفًا ..

لكنه إذ جلس جوار الفتاتين على مقعد في المرج ، راح يملأ عينيه من جمالهما وجمال الطبيعة ، وقال لنفسه :

ـ « بحق السماء .. أنا سعيد فعلاً .. »

* * *

تم ترتيب من يعطى له دروس اللاتينية والفرنسية والألمانية مع بعض الرياضيات . إنه الآن حر تمامًا يصحو متى شاء وينام متى شاء . ليس بحاجة إلى الكذب أو اختلاق الأعذار .. كما قال له مدرس الرياضيات البريطاني السكير الذى يقيم فى ألمانيا :

ـ « ابق هنا .. لا تذهب إلى أكسفورد . إن أجمل شيئين فى الحياة هما حرية الفعل وحرية التفكير ... فى فرنسا أنت حر تفعل أى شىء تشاء ، لكن يجب أن تفكر كالآخرين . فى ألمانيا يمكنك عمل ما تريد مع الاحتفاظ بأفكارك الخاصة .. إنجلترا بلد تخنقه التقاليد فلا يمكنك أن تفكر أو تتصرف براحتك .. السبب أنه بلد ديمقراطى وإننى لاأتوقع أن تكون أمريكا أسوأ .. »

كان عليه أن يدرس مسرحية فاوست ، وكان هذا زمن علا فيه نجم جوته فى ألمانيا . بينما كان عليه أن يترجم إحدى مسرحيات شكسبير إلى الألمانية .

لم يكن مولعًا بالعلاقات الاجتماعية ، وربما كان هذا من بقايا طباع سكان الكهوف ، فهو لم يكن يحب أى شخص يلقاه لأول مرة .. لابد من فترة يعرفه فيها ، وكان يجد أشياء ذكية جدًا يمكن قولها لكن بعد أن تنقضى المناسبة لذلك .

فى الفترة التالية تعرف أمريكيًا يدعى (ويكس) ، ودارت بينهما مناقشات دينية كثيرة .. لم يكن يتخيل أنه من الممكن أن تتم مناقشة هذه الأمور علانية ، وكان حتى هذه اللحظة يعتقد أنك يجب أن تكون تابعًا لكنيسة إنجلترا التى تمثل الدين الصحيح ، وإلا فأنت هالك . لكنه بدأ يتساءل عن مصير المسلمين والبوذيين وباقى الكنائس وسواهم . كل واحد من هؤلاء يعتقد أنه الدين الصحيح الوحيد . هكذا بدأ إيمانه يهتز بفعل هذه المناقشات الطويلة .. وإن ظل الخوف من العذاب الأبدى فى الجحيم يطارده ..

من ضمن أصدقائه هناك كان (هايوارد) الذى اعتاد أن يذهب معه إلى المسرح المحلى ثلاث أو أربع مرات أسبوعيًا بغرض تحسين لغتهما الألمانية . لم يكن فيليب قد رأى المسرح من قبل باستثناء بعض فرق الكنيسة البائسة التى كان عمه يستدعيها لكنه لا يحضر عروضها لأن هذا غير لائق به ، لهذا شعر بحماس عظيم واستثاره هذا العالم الغريب المثير . شعر بأن هذا هو العالم الحقيقى الوحيد .. وشعر بأنه تعب من الاستعداد لبدء الحياة ويريد أن يبدأها فعلاً .

من الخرافات الشائعة أن الشباب سعداء .. خرافة يصدقها من فقدوا الشباب ، بينما الشباب يعرفون أنهم معذبون لأنهم مفعمون بالمثل الوهمية وفى كل مرة يتعاملون فيها مع الواقع يجرحون ويألمون . والمشكلة أن جيل الشيوخ يساهم بدوره فى خديعة الجيل التالى له .

★ ★ ★

عندما عاد فيليب إلى إنجلترا أثار دهشته أنه لم يلحظ من قبل كم أن عمه وامرأته مسنان . وأدرك للمرة الأولى أن عمه صغير الحجم أشيب أصلع الرأس .. أما زوجة العم فاحتضنته بحب وهى تبكى . ارتجف فيليب لأنه لم يتصور قط كم أنها تحبه فعلاً .

– « أنت كبرت يا فيليب .. لقد صرت رجلاً الآن .. »

كانت نحيلة جدًا لدرجة أن ساعديها ذكراه بعظام الدجاج . وكانت نحيلة جدًا . فهم أن هذين قد أنهيا حياتهما وهما ينتظران النهاية فى صبر .. لم يحققا أى شىء ولو رحلا فلن يشعر أحد بأنهما وجدا أصلاً .

كان يفكر فى مصير حياته وقتها ، وقد كانت امرأة عمه تؤمن بأن السيد المهذب لا يمكن أن يعمل إلا فى أربع وظائف : الجيش البحرية القانون الكنيسة .. أحيانًا كانت تضيف الطب وإن كانت

فى طفولتها تعودت على أن الطبيب ليس سيدًا مهذبًا . رفض فيليب بلا تفكير الخيارين الأول والثانى كما رفض الرابع من قبل . أرسل عمه يسأل محامى الأسرة إن كان يرحب بفيليب فى مكتبه فكان رده أنه لا يشجع هذا القرار ، لأن المهنة مزدحمة بالمحامين وفرصة فيليب شبه معدومة فى أن يكون شيئًا أفضل من كاتب محام ، من دون صلات قوية .

فى هذه الزيارة قابل قريبة له جاءت لتقيم عند عمه بعض الوقت ، هى مس ولكنسون ، وقد بدت له شابة أنيقة .. خرجا معًا كثيرًا وسألته عن زيارته لألمانيا . قالت له إنها تهابه لأنه ساخر جدًا ، وحاولت أن تعرف إن كان قد وقع فى الحب من قبل .. فى الواقع لم تكن له أية مغامرات عاطفية لكنه تظاهر بالغموض ليوحى بأن لديه الكثير . خاف أن تطلب منه التفاصيل لأنه قادر على اختراع بعضها لكنه لن يخدعها كثيرًا لأن النساء يجدن الحدس .. لقد قرأ عن هذا كثيرًا .. لا يمكن خداعهن ..

ولما سأل زوجة عمه عن سن قريبته تلك قالت ضاحكة :

ـ « هى أكبر منك على كل حال .. لقد كانت فى السادسة عشرة عندما قابلناها منذ عشرين عامًا .. »

ـ « إذن هى تجاوزت الثلاثين ؟ »

لكنه كان قد بدأ يولع بمس ولكنسون جدًا ، وكانت قد زارت فرنسا وقابلت الكاتب الشهير (ألفونس دوديه) الذى كتب لها إهداء على إحدى رواياته . وقد قالت له :

- « الرجال الفرنسيون عشاق حقيقيون .. البريطانيون شديدو الخجل ، والخجل شىء أحمق فى الرجل .. هم لا يقدرون على أن يخبروا المرأة أنها فاتنة .. »

شعر بالحمق وبأن عليه أن يقول شيئًا ، لكنه لم يجد ما يقول وشعر بأنه سيجعل من نفسه أبله لو فتح فمه .

كانت مولعة باستخدام الفرنسية من حين لآخر بلا سبب ، لكنها كانت تتكلمها بطلاقة . وقد أصرت على أن تعطيه دروسًا فى الغناء لأن صوته جميل ..

- « لماذا لا تدرس الرسم فى فرنسا ؟ »

- « أتمنى أن ترى وجه عمى لو أخبرته بأننى أريد الذهاب إلى فرنسا لدراسة الرسم ! »

من جديد راح يراجع سنها .. من الواضح أن عمه نسى التاريخ الصحيح ، فهى لا تبدو له أكبر من الثلاثين بحال .. وما أهمية السن ؟.. كليوباترا كانت فى الثامنة والأربعين عندما حارب أنطونيو العالم من أجلها .

بدأت العطلة تدنو من نهايتها ، وكان على مس ولكنسون أن ترحل قبله بأسبوع .. فسألته :

ـ « ترى هل نلتقى ثانية ؟ »

ـ « لا أرى ما يمنع .. »

قالت :

ـ « لا تتكلم هكذا .. أنا لم ألق فى حياتى من هو أقل رومانسية منك .. »

شعر بخجل من نفسه وخاف أن تحسبه ناقص الرجولة . إنه فى العشرين تقريبًا وهى رائعة الجمال وبرغم هذا لم يتكلما إلا عن الفنون . كانت تقريبًا فرنسية وهذا ألهب خياله لأنه لم يكن يحب البريطانيات . لكن كيف يبدأ ؟... لو ارتكب أى خطأ لشكته لعمه .. وعمه سيخبر الجميع .. ولسوف تسخر منه زوجة عمه وتقول إن مس ولكنسون كان يمكن أن تكون أمه ..

ـ « بنسان كى أعرف ما تفكر فيه .. »

قالتها مس ولكنسون .. فقال بجرأة :

ـ « أفكر فيك ! »

ـ « بخصوص ؟ »

ـ « أنت تطلبين معرفة الكثير حقًا .. »

ـ « أنت ولد شقى ! »

هذا ضايقه كثيرًا .. يحاول أن يبدو كرجل بينما هى تعامله كناظرة مدرسة يرفض تلميذها أن يؤدى الواجب كما تريد . أضف لهذا أنه فعلاً لم يكن يشعر بتلك العاطفة الكاسحة التى قرأ عنها فى القصص حيث تحمله أمواج الحلم للسماء .. لم يكن هذا ما يشعر به وبالتأكيد لم تكن مس ولكنسون هى الصورة المثلى . كان ينفر منها فى الصباح ويميل لها نوعًا عند الظهر بينما يفتن بها فى المساء .. هذه ظاهرة أثارت دهشته ..

هنا ظهرت زوجة عمه فى الحديقة ، وقالت :

ـ « لِمَ لا تعودان للبيت أيها الشابان ؟.. إن هواء الليل لا يناسب صحتكما .. »

سمع هذا ونفذه على الفور وهو يشعر بارتياح لأنها خلصته من هذا الموقف .

تقول مس ولكنسون إن الفرنسيين يتمتعون بالجرأة .. هذا سهل لأن لغتهم تناسبهم .. كان فيليب لا يتصور أن يقال شىء عاطفى بالإنجليزية .. هذا يجعله سخيفًا ..

إلا أن الأيام التالية جعلته يعترف لمس ولكنسون بحبه ، واعترفت هى له بالشىء ذاته .. اعترفت بالإنجليزية والفرنسية .. وطلبت منه أن يسميها (إميلى) لكنه لم يجسر على ذلك .

كانت تحبه أكثر يومًا بعد يوم .. وراحت تقول إنها تفكر فى الانتقال إلى لندن كى تكون قريبة منه . لم يرق له هذا لأنه كان يفضل أن يكون حرًا بلا ارتباطات فى لندن .

ازداد الأمر سوءًا عندما علمها لعب التنس ، وكان هو يلعبه ببراعة برغم حالة ساقه . ذات يوم جاءت فتاتان حسناوان فى عمره تقريبًا وراحتا تلعبان معه ..

كان ما أثار دهشته أنها ألقت بالمضرب على الأرض فى عصبية ، ثم انطلقت تجرى ذاهبة لغرفتها . لحق بها فاستوقفته زوجة عمه داخل البيت لتقول :

ـ « أنت آذيت مس ولكنسون .. إنها حزينة جدًا فى غرفتها .. »

صعد إلى غرفتها وقرع الباب فلم يرد أحد . دفع الباب ودخل . هنا أثار دهشته أنها راقدة على الفراش على بطنها تبكى وقد دفنت وجهها فى الوسادة .. كان مغتاظًا أصلاً لأنها جعلت الكل يشعر بوجود شىء ما بينهما .

دنا منها فى ارتباك وسألها عما يبكيها ، فقالت :

ـ « أنت قاس جدًا .. ككل الرجال لا قلب لك .. »

ـ « لا أفهم .. »

ـ « رأيتك وهاتين الغندورتين تتبادلون المزاح وتلعبون تلك اللعبة الكريهة التى أكرهها لكنى ألعبها من أجلك أنت .. »

ـ « لكنك تعرفين أننى لا أبالى بهما .. لماذا تعتقدين هذا ؟ »

كورت منديلها وكانت المساحيق على وجهها قد ذابت بفعل الدموع ، بينما انتكش شعرها .. ونظرت لفيليب بعينين مشتاقتين وقالت :

ـ « لأنك فى العشرين وهما كذلك .. بينما أنا عجوز .. »

احمر وجهه وشعر بتوتر ، وتمنى فى هذه اللحظة لو لم يكن قابلها قط ..

اعتذر لها وطلب منها أن تنزل لضيوفها فردت بالإيجاب ، وغادر الغرفة شاعرًا براحة لأن الموقف انتهى .

فى الأيام التالية شعر معها بعدم راحة حقيقى .. كانت تذكره طيلة الوقت بأنه مدين لها بدين لا يقدر على رده .. كانت تبكى كثيرًا جدًا وهو ما حيره لأنه لم يقبل هذا من امرأة ناضجة .

* * *

كان يميل للوحدة بل هو بحاجة إلى قدر كبير منها فى كل يوم ، لكنها كانت تعتبر هذه غلطة منه . كانت لا تكف عن امتداح رقة الفرنسيين واهتمامهم بحبيباتهم وتضحياتهم وكيف يكتبون خطابات عاطفية كل يوم .. بدا واضحًا أنها تريد منه الكثير جدًا . وهو لم يكن على استعداد للكتابة إلا عندما يرغب فى ذلك .

أخيرًا جاء يوم سفرها .. فجاءت لمائدة الإفطار شاحبة فى ثوب أسود مما جعلها تبدو تمامًا كمديرة مدرسة . وكان قد تحاشاها ليلة السفر حتى لا تظهر عاطفة زائدة تفضحه أمام عمه أو مارى آن الخادمة سليطة اللسان التى لا تحب مس ولكنسون ، وتطلق عليها (القطة العجوز) ..

أوصلها للمحطة مع عمه .. هناك أصرت على أن تقبلهما معًا .. ثم تكومت فى ركن المقصورة وراحت تبكى . عندما عاد العم قال لزوجته إن مس ولكنسون أصرت على أن تقبله هو وفيليب فقالت :

ـ « لا بأس .. فى سنها يمكنك أن تسمح بشىء كهذا .. »

هذا هو حبه الأول إذن !. شعر بمرارة لأن الحقيقة تختلف كثيرًا جدًا عن الخيال ..

★ ★ ★

8

قضى فيليب بضعة أشهر فى لندن فى أحد مكاتب المحاسبة ، وكانت إميلى تمطره بالخطابات .. للمرة الأولى يكتب خطابًا غراميًا فى حياته ، وقد حاول أن يقول فيه إنه يتعذب وإنه لا ينام الليل ويتمنى أن يلثم يديها ، لكنه لم يستطع .. لذا جاء خطابه باردًا تقريريًا يحكى عن حياته فى لندن .. هكذا انهمر عليه سيل من خطاباتها تقول فيها إنه قاس ناكر للجميل .. وإنه بارد جدًا معها .. هى لا تتحمل البعد عنه لذا ستلحق به فى لندن . أرسل يقول لها إنه لن يكون حرًا فى الكريسماس . هكذا أرسلت له المزيد من الخطابات الدامعة تقول إنها تحبه وإنها لا تستطيع التخلى عنه ، ولم يعد أمامها سوى قتل نفسها ..

شعر بقلق ثم تذكر أن خطاباتها كلها بالفرنسية .. وهى تفعل ذلك بداعى الاستعراض لا أكثر . قال لنفسه :

ـ « ليتنى لم أرها على الإطلاق ! »

الحقيقة أن حياته فى لندن كانت قاسية وحيدة ، وراح يتساءل عن كيف يتعارف الناس فى لندن . فى الكريسماس لم يستطع السفر لعمه لأن زوجة العم كانت مريضة جدًا ، وقد اضطرا للسفر للاستشفاء .. هكذا قضى الإجازة وحده ..

كان يقضي الوقت فى الرسم وقال كل من رأى رسومه إنه موهوب فعلا ، ونصحوه بأن يدرس الفنون فى باريس .

هكذا لم يشعر بأى ندم عندما انتهى العام فأخبر المحاسب أنه راحل إلى غير رجعة ، وصارحه هذا الأخير بأنه لا يصلح كمحاسب على الإطلاق . لم يضايقه هذا فقد كره المكان وكره العمل وكره وجوه رفاقه .. كانت خبرته الأولى عن لندن سيئة فعلاً .

عندما أخبر عمه بأنه لن يكون محاسبًا تضايق هذا الأخير . كان ككل الناس ضعاف الشخصية يولى اهتمامًا وقيمة كبرى على ألا يغير المرء أفكاره أو ما بدأ به . صارحه فيليب برغبته فى أن يذهب إلى باريس لتعلم الفنون لكن الرجل كان يعتبر باريس بؤرة فساد ورفض هذا بشدة ، مما اضطر فيليب إلى قول أشياء خشنة .. منها أنه الوحيد الذى يحدد كيف ينفق ما تركه له أبوه من مال . كان قد بقى له عام واحد قبل التمكن من إرثه ، ولكن العم قال إنه لن يمنحه مالا ..

قال فيليب لزوجة عمه إنه راغب فى أن يذهب إلى السوق لبيع مجوهرات أبيه ...

لكنها غابت بعض الوقت ثم عادت من المصرف حاملة كيسًا صغيرًا . فتحه فوجد فيه مائة جنيه هى مدخراتها .. لقد فعلت هذا كى لا يضطر لبيع ما ورثه عن أبيه . عندما تزوجت أودعت 300 جنيه فى المصرف وظل هذا المبلغ هناك يغطى النفقات

الطارئة .. برغم ضآلة المبلغ فقد كان القس يتكلم عنه مع زوجته فى فخر كأنه ثروتهما الصغيرة .

صاح فيليب :

ـ « كلا .. هذا مستحيل .. لا يمكن أن آخذه .. »

ـ « أرجوك أن تفعل يا فيليب .. كنت أحتفظ به للطوارئ لكننى آسفة بسبب تبذيرى الشديد .. كنت أخشى أن يموت عمك أولاً .. فى الواقع تمنيت ذلك حتى لا يتعذب ، لكننى اليوم أدرك أنه لن يشعر بشىء لو مت أولاً .. ربما تزوج كذلك .. وأنا أعرف أن أجلى قد حان وأن هذا المال لن يساعدنى فى شىء .. »

لثم فيليب خدها المجعد الدامع ، ولا يعرف لماذا شعر بالخجل من نفسه .. لماذا تضحى وتبكى من أجل شاب مثله ملىء بالأنانية والاهتمام بنفسه ؟.. إنها تعرف جيدًا أنانيته لكنها تقبلها كما هى ..

ـ « فيليب .. هلا أخذت المال ؟.. أنا أعرف أنك تستطيع تدبير أمرك بدونه لكنى مصرة .. أنا لم أرزق بطفل ولطالما اعتبرتك ابنى ، ولكم تمنيت لو استطعت العناية بك ، لكن المدرسة أخذتك منى .. »

هكذا لم يجد فى وسعه سوى أخذ المال والتأثر يخنقه .

* * *

هكذا نزل فيليب من القطار فى باريس ..

سوف يلتحق بدراسة الرسم مع سيدة إنجليزية تدعى مسز (أوتر) .

كان قد حجز غرفة فى فندق (ديز أيكول) فى حى مونبارناس . وبرغم أن الوقت كان متأخرًا فإنه كان يرتجف لهفة وشوقًا . هناك جلس فى مقهى وطلب عشاء وشرب (الأبسنتى) ، وشعر بأنه فنان بوهيمى حتى النخاع .

بدأ يتعرف مجموعة من الشباب البريطانى الذى يدرس الفنون هنا ، وهم جميعًا فى العشرينات من عمرهم ، مفعمين بالتمرد ضد الثقافة الفكتورية ويتمنون أن يشعلوا نارًا عظمى تبتلع كل أعمال الفكتوريين مثل ديكنز وثاكرى وباتر ..

لكن باريس لم تكن رخيصة كما توقعها وكما زعم الجميع فقد أوشكت ثلاثة أشهر فيها أن تبدد مدخرات فيليب . هكذا انهمك فى دروس الرسم وبدأ يخرج إلى المناظر الطبيعية ليرسمها بالزيت . كان يشعر بظمأ شديد للحب لكنه كان يحب الحب

ذاته .. والغريب أنه حينما يكون وحده كان يحلم بامرأة معينة بشدة ويفكر فيها ، فإذا جلس معها فى الواقع لم يعد يميل لها ، وشعر بأنها قبيحة وأن أصابع قدميها مليئة بالكاللوهات ..

هذا جعله يزداد غموضًا فى نظر نفسه ..

كان يحاول أن يرسم الروح ذاتها فى الموديلات ، وقد أدرك أن رميرانت والجريكو عندما رسموا البورتريهات استطاعوا أن ينقلوا روح الشخصية ذاتها إلى الرسم . ظلت هذه المعضلة تضايقه إلى أن ذهب إلى مدرسة الرسم كعادته حيث كان الموديلات ينتظرون فرصتهم فى الرسم . كان هناك رجل قصير القامة مشدود الجسد فى وجهه نبل ووقار غريبين . هذا هو الموديل المختار لهذا اليوم .

لما انتهى الدرس هرع فيليب إلى الرجل وطلب منه أن يسمح له بأن يرسمه فى مرسمه فى لوحة يقدمها فى صالون فنى شهير . عرف أنه أسبانى وإنه لم يعتد أن يكون موديلاً . قال له الرجل الذى يدعى (أرتور ميخيل) إنه أديب وإنه لا يقبل أن يبيع صورته لترسم .. فقط هو فقير يفعل كل شىء ممكن للظفر

بالمال حتى ترجمة النصوص القانونية وإعطاء دروس فى اللغة الأسبانية .. قال له فيليب إنه لن يرسم جسده بل سيرسم وجهه لأنه يروق له . كان فيليب رومانسى التفكير وبدا له أن معرفة هذا الأسبانى ستضيف له الكثير . كان هذا فى زمن يصعب فيه على البريطانيين فى باريس أن يتكلموا مع شخص غير بريطانى .. كانوا يعيشون فى باريس بعاداتهم ومعارفهم الإنجليزية وسط مجتمع بريطانى خلقوه لأنفسهم ، لكن فيليب خرق هذه القاعدة ..

هكذا تم الاتفاق على أن (أرتور) سيزور (فيليب) ليرسمه كل يوم اثنين ، لكنه لن يتقاضى مالاً .. سيفعل هذا للهواية . وبدأت الجلسات فعلاً . من حين لآخر كان يقترض خمسين فرنكًا من فيليب وهو ما كان يكلفه أكثر مما لو دفع له أجرًا ، لكن فيليب قبل هذا ..

راح فيليب يسأله عن أسبانيا وتاريخها ورساميها ، لكن الرجل لم يكن مهتمًا ببلده على الإطلاق .. كان يؤمن أن هناك بلدًا واحدًا يستحق الاهتمام هو فرنسا ..

ـ « أسبانيا قد ماتت .. لا يوجد بها فنانون أو أدباء مهمون .. فرنسا فقط تستحق الاهتمام .. »

وكان يكتب روايته لتدور فى فرنسا باعتبار أسبانيا لا تستحق أن تدور فيها أحداث رواية . ذات يوم جلب روايته لفيليب وراح يقرأ له مقاطع منها يترجمها بالفرنسية الركيكة .

هنا أصيب فيليب بالذهول .. الرواية سيئة ركيكة جدًا .. هذا الرجل لا يخفى وراء عينيه الذكيتين وملامحه النبيلة إلا فكرًا شديد السطحية والضحالة . إذن اللوحة لم تستطع بلوغ روح هذا الرجل . إن الرجل يملك كل ما يجعله كاتبًا كبيرًا ما عدا الموهبة ..

نظر فيليب للوحة فى رعب .. كيف يمكنه إذن أن يعرف إن كان فيها شىء فنى أم لا ؟.. إن مجرد الرغبة فى النجاح لا يكفى للنجاح ..

ـ « لو لم تكن لوحة رائعة فلابد من أن أتوقف عن الرسم .. لا أريد أن أكون مجرد فنان من الدرجة الثانية .. »

هل هو يملك ما هو أكثر من بعض البراعة اليدوية التى تجعله ينقل الأشياء بدقة ؟

لو صار طبيبًا أو رجل أعمال ، فلن يلاحظ أحد أن مواهبه محدودة ، لكن ما جدوى أن تكون رسامًا يقول الجميع إن موهبته محدودة ؟

فى هذه الفترة انتحرت إحدى التلميذات بأن شنقت نفسها . واكتشف أنها انتحرت لأنها كانت جائعة فعلاً . أصابه هذا بالرعب .. معنى هذا أنه يجب أن يقتصد لأنه لم يبق لديه من مال إلا 1600 جنيه ، ومن المتوقع ألا يحصل على أى مال قبل عشر سنوات .. ربما لا يحصل على مال أبدًا كمعظم الفنانين هنا .. لربما كان من الأجدى للفتاة المنتحرة لو أنها كفت عن المحاولة منذ البداية .

انتهى من لوحة الأسبانى فأرسلها إلى الصالون الذى أراد أن يعرض فيه ، لكنها رفضت ..

عزاه أصدقاؤه قائلين : إن هذه ليست أول مرة يرفض فيها الصالون لوحات صارت شهيرة بعد ذلك ، لكن فيليب كان يعرف أنها أول لوحة له ومن الطبيعى أن ترفض ، لكنه كذلك كان يعانى فقدان ثقة تامًا فى موهبته .

قال له صديقه :

- « لا تهتم بالنقد .. لا تهتم بالرفض .. الإنسان يرسم لأنه لا يستطيع أن يعمل غير ذلك .. إنها وظيفة من وظائف الجسد لكن القليلين يملكونها . أنت وضعت روحك وعرقت على قماش الرسم وبرغم هذا من الوارد أن يرفضها صالون الفنون ، فإن قبلها نظر لها الناس عشر ثوان فقط .. فإن بيعت اشتراها ثرى غبى يعلقها على جدار بيته .. صدقنى . نحن نرسم لأننا لا نستطيع سوى ذلك وإلا انتحرنا . لو رأى العالم نفسه كما نرسمه فى لوحاتنا فإنه يعتبرنا عباقرة وإلا فهو يتجاهلنا .. لا يهم .. إن ما يمكن الظفر به من الرسم قد ظفرنا به فعلاً ونحن نرسم .. »

* * *

9

مر شهران وفيليب يشعر بأن هذه الحياة هى الطريقة المثلى كى تفلت منك الحياة دون أن تعاش .. لقد خلقت الحياة لتعاش لا لترسم ..

قرر أن يأخذ الخطوة المهمة مرة واحدة ، وفى ستوديو الرسم الذى يتمرن فيه قرر أن يسأل أستاذه عما إذا كان يرى فى رسمه ما يبشر بخير . إن الفتاة المنتحرة لم تفارق مخيلته .

نظر له الفنان الكبير نظرة طويلة بلا تعبير ، ثم سأله :

ـ « لا أفهم .. »

ـ « أنا فقير جداً .. لو لم تكن لدى موهبة فلا داعى للاستمرار .. »

ـ « أليس بوسعك معرفة إن كانت عندك موهبة أم لا ؟ »

ـ « كل رفاقى يعتقدون أن عندهم موهبة .. بينما أدرك أن أكثرهم على خطأ .. »

لشدة دهشته قرر الفنان أن يذهب معه إلى مرسمه ليرى مجموعة أعماله مع بعضها . غاص قلب فيليب فى قدميه فهو كان يصبو إلى فترة تمهيد نفسى .. فترة استعداد ..

على باب المرسم شعر بأنه لا يريد .. لا يريد أن يعرف .. لو كان أكثر شجاعة لطلب من الفنان أن يرحل . ماذا لو كان كل هذا الجهد وهمًا بلا جدوى ؟

راح يعرض لوحاته على الفنان متوترًا بينما ظل هذا الأخير صامتًا يصغى ، ثم أشعل لفافة تبغ .. فى النهاية قال :

- « أرى أن يدك دقيقة بارعة ، وأن هناك الكثيرين ممن يرسمون أسوأ منك وهناك كثيرون يرسمون مثلك ، لكنى لا أرى أية موهبة فيما قدمته لى .. أرى براعة وذكاء .. لكنك ستظل فنانًا متوسط المستوى .. »

قال فيليب محاولاً التماسك :

- « أشكرك على تعبك معى .. »

قال الفنان وهو ينهض :

- « أرى أن تجرب نفسك فى مجال آخر .. كنت أتمنى لو قابلت فى بداية حياتى من يسدى لى نصيحة كهذه .. من المؤلم أن يكتشف المرء ضعف موهبته بعد فوات الأوان .. »

ثم ابتسم وغادر الغرفة ..

نزل فيليب إلى الشارع فاستوقفه البواب . كان يحمل خطابًا من عمه ، وقد خمن فيليب محتوى الخطاب لأن عمه لم يكتب له من قبل لكن زوجته كانت تفعل ..

كان الخطاب ينعى له وفاة زوجة عمه الطيبة ، ويقول إن الوفاة تمت فى سلام وإن تمت بسرعة بحيث لم يكن هناك وقت كاف لإبلاغه ..

★ ★ ★

10

صدم العم بشدة عندما عرف أن فيليب ينوى التوقف عن الرسم .. كان قد طلب منه أن يرسم له صورة شخصية ، بعد ما تمت مراسم دفن زوجته فى بلاكستابل . صاح فى فيليب كالمجنون :

ـ « كنت مقتنعًا قبل ذهابك لباريس أنك خلقت رسامًا .. وقبلها فكرت فى أن تكون محاسبًا .. هذا يدل على انعدام تركيز وعدم استقرار .. أنت المسئول عن مالك الآن فلم أعد وصيًا عليه ، لكن تذكر أنه فى حالتك الصحية من الصعب أن تظفر بعمل بسهولة ! »

كان فيليب قد اعتاد فى أية مشادة مع أى إنسان أن ينزلق لسان الأخير إلى الكلام عن عاهته ، لكنه تعلم التحكم فى انفعالاته كما تعلم التحكم فى احمرار وجهه الذى كان يحرجه كثيرًا فى طفولته .

كان يفكر فى الطب .. مهنة أبيه .

عليه أن يبدأ فى لندن ومعه 1600 جنيه .. يبدأ حياته الثالثة ..

★ ★ ★

هكذا التحق بمدرسة الطب بعد ما اجتاز اختبارًا صغيرًا نجح فيه . ووجد بيتًا قريبًا من المدرسة يتفق مع موارده المحدودة جدًا ..

كانت المحاضرة الأولى التى يحضرها هى محاضرة تشريح . وقد عرف أنهم يبدءون بتشريح الطرف السفلى لأنه الأسهل .. بحث فى ممر مظلم عن قاعة المحاضرات .. ودخل . وفى الحادية عشرة امتلأت القاعة بالطلبة ، ثم دخل أحد المساعدين ليضع عظام حوض بشرى على المنضدة مع كوب ماء . ولاحظ فيليب أن معظم الطلبة أصغر سنًا منه . ثم دخل المحاضر الأستاذ (كارسون) وبدأ يتكلم عن علم التشريح وأهميته للجراحة وأهميته لفهم الفنــون .. واقترح عليهم اسمى كتابين مناسبين ..

ـ « سوف تتعلمون أشياء صعبة ، سوف تنسونها فى اللحظـة التى تخرجون فيها من لجنــة الامتحـان ، لكن أن تتعلم التشريح وتنساه لخير من ألا تتعلمه على الإطلاق .. »

بعد المحاضرة اقترح زميل فيليب أن يدخـلا المشرحة . هكذا مشيا إلى هناك ، وعرف فيليب على الفور سر الرائحـة النفاذة التى يشمها منذ جاء لهذا المكان .. أشعل غليونه فضحك زميله .

على جانبى القاعة كانت مناضد معدنية عليها جثث .. وكـانت معظمها لرجال أسود لونهم بشدة بسبب المادة الحافظة وصارت بشرتهم كالجلد .. وقد عرف أنه سيشرح الرجل رقم 4 مع طالب آخر .

كانت جثة رجل نحيل فى الخامسة والأربعين له لحية شائبة وشعر متساقط .. لم يشعر فيليب قط بأن هذا كان إنسانًا على الإطلاق ، وبرغم هذا كان فيه شىء مخيف ومنفر .. ثمة شىء مفزع يتعلق بالموتى .. يشعرونك أن بوسعهم التأثير بشكل شرير على الأحياء .

ظلت الرائحة الكريهة تتسرب إلى أنفه ، وتشع من حوله حتى وهو يشرب الشاى ، فقال له صاحبه :

- « سوف تعتادها .. لو جاءت لحظة لم تشمها بعد ذلك لشعرت بالوحدة .. »

قال فيليب :

- « لن أتركها تفسد شهيتى .. »

وبدأ فيليب يتعرف مجموعة الطلبة من حوله . كان الطب هو المهنة الوحيدة التى يمكن أن تبدأها متأخرًا وبرغم هذا تعيش منها . معظم من معه كانوا سيفشلون فى الامتحانات ويغادرون المدرسة مبكرًا .. البعض كان سيعمل مساعد طبيب بأجر رخيص .. البعض ممن كان لهم آباء أطباء كانوا سيواصلون المهنة وتصير لهم عيادة فى الأرياف .. واحد أو اثنان من النوابغ سوف يصيران أساتذة أو يملكان عيادتهما الخاصة فى شارع هارلى .

كانت الدراسة شاقة فعلاً .. علم التشريح كان عبارة عن حفـظ مجموعة هائلة من الأسماء عن ظهر قلب .. لا أكثر .. ولم يبد لـه التشريح نفسه عملية ذات جدوى .. تضييع وقت بحثًا عن عصب أو شريان ، بينما يمكنك أن تراه بوضوح كمـا خلق فـى الأطلس أو متحف التشريح .

لم يكون صداقات حميمة ، وكان يصبـو إلـى العلاقـات الاجتماعيـة لكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك .

هكذا اتخذ لنفسه صديقًا هو (دانسفورد) الذى قابله أول مـرة فـى المدرسة الطبية . كـان طيبًا أقرب إلـى السذاجة وقد أدرك فيليب أنه يملك تلك الجاذبية التى يعرف أنه هو نفسه يفتقر لها . وقد اعتادا أن يتناولا الشاى فى مقهى فى شارع البرلمـان لأن فيه ساقية يميل لها (دانسفورد) ، وهو شىء لـم يستطع فيليب أن يفهمه .

ـ « ما من أحد يمكن أن ينظر لها فى باريس .. »

كانت نحيلة لها جسم صبى ولها طابع فكتورى معين من الطراز الذى فرضه الرسامون الفكتوريون على النـاس باعتبـاره الجمـال الإغريقى . وبدا أنها تعانى فقر دم شديدًا فشفتاها شديدتا الشحوب .. ولا توجد لمسة لون أحمر واحدة فى جلدها . وكـانت تـروح هنـا وهناك بادية الملل ..

لكنها كانت تعنى بيديها جيدًا فلم تدع العمل يفسد جمالهما .

لم يكن دانسفورد ناجحًا مع النساء قط لذا طلب من فيليب أن يساعده فى بدء الحديث معها . لكنها كانت قد ميزت نوعيتهما على الفور .. إنهما صبيان لا نفع منهما .. وعرف دانسفورد أن اسمها ملدريد إذ سمع صديقاتها ينادينها بذلك .

ذات مرة وجه لها فيليب ملحوظة مرحة فقالت فى برود :

- « بعض الناس يحسنون صنعًا لو لم يتدخلوا فى شئون الآخرين ! »

- « هل يعنى هذا أنه لم يعد بيننا كلام ؟ »

قالت بذات البرود :

- « أنا هنا لأتلقى تعليمات الزبائن وآخذ ثمن ما شربوه .. لست هنا كى أتكلم .. »

عندما غادر المقهى كان يشعر بأنه تلقى صفعة . ولم يستطع نسيان هذه الإهانة بسهولة . دانسفورد نسى الموضوع سريعًا وأحب فتاة أخرى ، لكن فيليب ظل يذكر هذه الفتاة وطريقتها معه ، وشعر بأنه لن يرتاح حتى يسوى حسابه معها .

وبرغم أنه قرر عدم دخول المقهى ثانية فإنه وجد نفسه يتجـه إلى هناك مرة أخرى ليجلس .. ولم تبد هى أية علامة علـى أنهـا رأته من قبل .. قال لنفسه :

ـ « أتمنى أن تشتمنى أو تقول شـيئاً يسمح لـى بـأن أشكوها للإدارة وأفصلها .. فهى تستحق هذا .. »

★ ★ ★

11

لم يستطع أن يقصيها عن ذهنه . كان يدرك أنها أهانته وقد أدرك أنه ترك فى نفسها انطباعًا سيئًا ، فشعر بأنه لن يشعر بالراحة ما لم يمح هذا الأثر . وبرغم أنه وعد نفسه مرارًا بألا يعود لهذا المقهى فإنه شعر بتوتر بالغ يرغمه على أن يقصده ثانية .

دخل المقهى ، هنا ابتدرته قائلة :

ـ « حسبت أنك لن تأتى ! »

شعر بقلبه يخفق .. فهو لم يتوقع أن تكلمه . عادت تسأله :

ـ « هل أنت طالب ؟.. أنت تشرّح الناس .. أليس كذلك ؟ »

ـ « ليس الأمر بهذا السوء .. »

لم يكن هناك أحد فى المقهى لذا جلست إلى منضدة وراحت تطالع قصة رخيصة من الطراز الذى كان يبتاعه غير المتعلمين . راح يراقب صورة وجهها الجانبية وقال لنفسه إنها بالتأكيد تحمل تقاطيع جميلة ، وشعرها غزير رائع الجمال ، برغم أن لون جلدها شبه الأخضر يعطى انطباعًا بالمرض . أخرج ورقة وبسرعة رسم (أسكتش) سريعًا لوجهها وهى تقرأ وتحاول نطق الحروف بشفتيها ، وترك الورقة على المنضدة عندما انصرف .

هكذا قابلته فى المرة التالية وقالت ضاحكة :

ـ « لم أعرف أنك تجيد الرسم .. »

ـ « درست الرسم فى باريس عامين .. »

ـ « هناك صديقة لى ترغب فى أن ترسمها ، لكن لا تقبل ذلك . لو بدأت لطلبن جميعًا نفس الشىء .. لن تجد مفرًا .. »

عندما انصرف لم يعد يحمل لها أية ضغينة ، وقال لنفسه إنها ليست سيئة ..

لكنه عندما جاء فى اليوم التالى لاحظ أنها تتجاهله تمامًا وأنها تثرثر مع رجل ألمانى كث الشارب يتردد على المقهى كثيرًا .. وعادت لمسلكها البارد معه . هكذا راح يتردد على المقهى عدة أيام فيتعمد أن يجلس على منضدة أخرى لتحضر لـه الشاى واحدة أخرى ، وعندما تلتقى العينان ينظر لها ببرود كأنه لم يرها من قبل ..

أدرك أنها لا تبالى وأن بوسـعه أن يستمر فى هذه اللعبة للأبد . هكذا انتظر حتى مـرت بقربه ذات ليلة وعرض عليها أن ترافقه للمسرح .. هزت كتفها فى لا مبالاة وقالت إنه لا مانع لديها ..

هكذا اتفقا على أن يلتقيا فى محطـة (فكتوريا) ثـم يصحبها للعشاء فى الثامنة ، لأن المسـرحية ستبدأ فى التاسـعة . ولاحظ أنها لا تبدى أى سرور .. بل هى تتصرف كأنها تسدى له خدمـة بهذا القبول ، مما ضايقه كثيرًا ..

تأخرت عليه نحو ساعة عن موعدها ولم تعتذر عن تأخرها ، وسألها عن المكان الذى ترغب فى تناول الطعام فيه فقالت إنها لا ترى فارقًا بين مكان وآخر .

جلسا إلى مائدة الطعام حيث الشموع والستائر الحمراء الشاعرية ، فطلب بعض الشمبانيا . راح يكلمها فكانت ترد بلا حماس وتضايق لأنه أدرك أنه ليس عندها ما تقول وهو لا يسليها على الإطلاق . كانت تمسك الشوكة كأنها قلم وعندما تشرب الشمبانيا كانت تبرز أصبعها الصغير . قال نكتة أو نكتتين لكنها أخذتهما على محمل الجد .

ذهبا إلى المسرحية ، التى بدت لفيليب سخيفة سوقية ، لكن ملدريد راحت تضحك حتى أوشك جانباها على الانفجار واستمتعت بوقتها أيما استمتاع .

فى الاستراحة راحت تتكلم عن الناس .. كل كلامها عن عيوبهم وراحت تعيب على كل شخص تراه ، وشعر فيليب بأنه يكرهها .. لكنه فى الوقت ذاته يريد أن يكون معها .. وخطر له أنها ستذهب للمقهى غدًا لتحكى للبنات عنه وكيف هو ممل ..

ـ « هل استمتعت بوقتك ؟ »

ـ « نوعًا .. »

ـ « هل ترغبين فى تكرار هذه الليلة ؟ »

- « لا فارق عندى .. »

كانت لا مبالاتها هذه تثير جنونه فعلاً .. لكنه بالفعل لا يعرف كيف تمر الساعات حتى يراها غدًا .. هو تعس معها لكنه كذلك تعس من دونها ..

هكذا أصابه الرعب عندما صار وحده أخيرًا .. إنه يحبها !. هذا مؤكد !.

نعم هو يحبها .. يريدها ..

صحيح أنه كذلك يتمنى لو هشم أذنيها ، لكنه يشعر بحنين كلما تذكرها ..

* * *

هكذا بدأ يجد نفسه مضطرًا إلى الذهاب إلى المقهى يوميًا ، ثم وجد نفسه يقابلها عند محطة فكتوريا وهى ذاهبة إلى العمل . كانت لا تكف عن اللامبالاة أو مزجها بالإهانة كعادتها ، ثم كانت تغير طريقتها كلما لمست منه فتورًا فتهش له مما يبعث الأمل فى نفسه ..

المشكلة كذلك كانت ذلك الرجل الألمانى الذى يتردد بانتظام على المقهى ، والذى كانت تقف لتتبادل معه الحوار الضاحك لفترات طويلة .. اسم الرجل (ميلر) .. ومن الغريب أن تتصور أية مواضيع مشتركة تجمع بينهما . إن افتقارها للعاطفة وبرودها يريحانه على الأقل فهى لن تعطى الألمانى أكثر مما أعطته هو .

كان قد ابتاع تذكرتين للمسرح كما اتفق معها ، لكنها اعتذرت لأن عمتها مريضة .. أدرك إن هذه أكذوبة للتنصل منه ، هكذا مزق التذكرتين أمامها .. سألته عن السبب فقال :

ـ « لا نية لى فى مشاهدة مسرحية كوميدية متعفنة .. فقط ابتعت التذاكر من أجلك أنت ... »

ثم خرج فلم يرحل وإنما وقف على رصيف مقابل يراقب المقهى . لما خرجت فوجئت به يقف هناك فصاحت فى غيظ :

ـ « أنت تراقبنى !. كنت أحسبك رجلاً (جنتلمان) .. »

ـ « وهل تعتقدين أن هناك (جنتلمان) يمكن أن يهتم بك ؟ »

كان راغبًا فى التنمر وأن يصل بالأمور إلى الأسوأ .. فقالت :

ـ « من حقى أن أغير رأيى .. لست مرغمة على الخروج معك ، وأنا ذاهبة للبيت الآن لكن لن يتجسس على أحد .. »

ـ « وهل كلمت ميلر الألمانى اليوم ؟ »

ـ « هذا ليس من شأنك .. وإننى على كل أفضل أن ألاحقه على أن تلاحقنى أنت .. ضع هذه الكلمات فى غليونك ودخنها .. »

شعر بمزاجه ينقلب من الغضب إلى اليأس وقال لها فى ذعر :

ـ « لا تكونى قاسية يا ملدريد .. تعرفين أننى أحبك بكل كيانى .. الأمر كله مهين لى، فلو لم تأتى معى الليلة للمسرح فلن أعود للمقهى ثانية .. »

ـ « تعتقد أن هذا يؤلمنى ؟.. كل مـا بوسعى قولـه هو : حظ سعيد .. »

وابتعد عنهـا .. راح يعرج إلى الناصيـة وتمنـى أن تناديـه .. نظر للخلف عساه يجدها تنظر له كانت قد رحلت .

وأدرك أنهـا مسرورة للخلاص منه ..

★ ★ ★

12

فى حجرته راح جاهدًا يحاول أن يدرس استعدادًا لامتحان البيولوجى بعد أسبوعين ، وهى مادة لا يعرف عنها أى شىء لكنه كان يثق فى ذكائه . لماذا تصرف بهذا الشكل وجعل أمامها خيارين ؟.. أن تذهب معه للمسرح أو لا تراه للأبد ؟.. كان أحمق وكان من الطبيعى أن ترفض ..

لماذا أحبها بهذه القوة ؟.. كان قد قرأ عن التخيل المثالى الذى يحدث فى الحب مما يجعل المحب يرى حبيبته ملاكًا ، لكنه كان يراها كما هى فعلاً . كانت خالية من الرقة أو الذكاء ، وكان فيها سوقية وتنمر منفران . لكنه يكرهها ويكره نفسه لأنه يحبها .. لا حيلة له معها .. يشعر بما كان يشعر به عندما يقهره صبى أكبر أيام المدرسة .. كان يقاوم قليلاً ثم يتحول إلى شىء خائر القوى تمامًا .

لم يستطع التركيز فى حرف مما يقرؤه ، وراح يفكر فى ملدريد ويستعيد المحادثة الأخيرة معها كلمة بكلمة .

ذهب إلى الامتحان الشفوى فأجاب عن الأسئلة قدر ما استطاع ، وخيل له أنه نجح بالتأكيد ، لكنه عندما ذهب ليرى النتيجة فوجئ بأن اسمه ليس بين الناجحين ..

ربت دانسفورد على كتفه آسفاً ، وكان من بين الناجحين . لكن فيليب قال إنه غير مهتم وإنه سيجرب حظه ثانية فى يوليو .. وظل يتكلم فى مواضيع عديدة ليظهر أنه غير مبال . غير أن فيليب شعر بأنه أساء تقدير نكائه .. من الغريب أن رسوبه لم يدهش أحداً سواه . وراح يتخيل احتفال الذين نجحوا وشماتة هؤلاء الذين يمقتونه ..

كان فى أمس الحاجة لرؤيتها .. قاوم كثيراً ثم وجد نفسه يستقل سيارة أجرة إلى المقهى .. وهو يشعر بالرعب من أن تكون قد تركت العمل . لكنه وجدها هناك ..

قالت له :

ـ « حسبتك قد مت .. »

كانت تبتسم .. تبتسم ...!

قال لها :

ـ « وعدت بأننى لن أراك ثانية .. »

ـ « إذن ماذا تفعله هنا ؟ »

كانت مصرة على أن يتجرع كأس المهانة حتى الثمالة . لكنه قال لنفسه إن خشونتها طبع فيها وليست مقصودة . ونظر لعنقها النحيل وخطر له أنه من الجميل لو أغمد فيه السكين الموضوعة على المنضدة .. هو يعرف من علم التشريح ما يكفى لقطع الشريان

السباتى ، لكنه فى الوقت ذاته كان يفكر أنه من الجميل لو غمره بالقبلات .

قال لها :

ـ « ليتك تعرفين إلى أى مدى أنا غارق فى حبك .. »

ـ « غريب أن تقول هذا ولما تطلب منى الصفح بعد .. »

كان مستعدًا لأى شىء مقابل أن تسمح له برؤيتها لذا اعتذر ضاغطًا على كبريائه .. فقالت له :

ـ « أما وقد اعتذرت فدعنى أقل لك إننى حسبت (ميلر) هذا مهذبًا ، لكنى كنت مخطئة .. وقد طردته شر طردة .. »

هكذا ارتبط بها أكثر فأكثر .. راح يتردد على المقهى يوميًا وكان يرغب فى التردد وقت الغداء ، لكنها قالت إن الفتيات بدأن يتكلمن . صار مفتونًا بها ولم يخف هذا لحظة واحدة عنها برغم علمه أن هذا يجعلها فى وضع أقوى . من حين لآخر كان يتعامل ببذخ لا تسمح به ظروفه فيبتاع لها هدايا ..

لكنهما كانا كثيرى الشجار ، وقد كانت أعنف المشاجرات عندما قالت له إنها سوف تقبل دعوة شاب آخر على العشاء فى الأيام التى لا تكون مرتبطة فيها بالعشاء معه .

قال لها فى غيظ :

- « بعد كل ما فعلته من أجلك ؟ »

قالت محنقة :

- « لو كنت تتكلم عن تلك الهدايا فسوف أعيدها لك .. أنت لا تتصور كم أن مواعيدنا تضايقنى وأنت لا تكف عن وصف حبك لى .. هذا يثير مللى .. »

أدرك أنها تستعمله كمجرد حل للعشاء ومشاهدة المسرح عندما لا تجد شخصًا آخر ..

كان قد اعتاد على أن يبرر قسوتها بغبائها .. هى لا تملك العقل الكافى لتفهم كم أنها تؤذيه . كانت خالية من الحواس العاطفة والغيرة . جرب مرات أن يجلس إلى مناضد أخرى ويغازل الفتيات الأخريات لكنها لم تكن تهتم على الإطلاق ..

كان مقيدًا بأصفاد قوية لها وأدرك أن استسلامها الكامل له عاطفيًا وعقليًا هو الخلاص الوحيد له .

كان يعرف أنها تتمنى أن ترى باريس التى كانت تسمع عنها كبلد المسرات والأفراح والأناقة . وكانت تتمنى أن ترى الحى اللاتينى ومونبارناس .. هكذا فكر فى أن يدعوها للذهاب معه إلى باريس ..

قالت :

ـ « كيف ؟.. هذا يكلف مالاً لا نهاية له .. »

وكان يعرف أن الرحلة ستكلفه مبلغًا طائلاً ، لكنه كان مصممًا على أن ينفق آخر مليم معه عليها . لكنها رفضت لأنهما غير متزوجين .

قال لها :

ـ « لكن الزواج ليس بوسعى .. أمامى على الأقل ستة أعوام قبل أن أكسب مليمًا .. »

ـ « ومن قال إننى أقبل الزواج منك حتى لو طلبت ذلك على ركبتيك ؟ »

عندما قلب الأمر فى ذهنه وجد أن الزواج هو الحل الوحيد فعلاً للظفر بها . هكذا قدم لها عرضه فى حرارة وقال لها إن معه 1400 جنيه يمكنهما أن يعيشا بها حتى يتخرج .. أى بمعدل ثلاثة جنيهات فى الأسبوع .. سألته :

ـ « وعندما تتخرج .. على كم ستحصل ؟ »

ـ « نحو ثلاثة جنيهات فى الأسبوع أيضًا .. »

ـ « هل تريد القول إنه بعد كل هذا الكفاح الشاق والمعاناة سوف تظفر بهذا المبلغ الضئيل ؟.. إذن أنا فعلاً في حال أفضل من دون زواج !. أنا مستعدة للزواج فقط لو كان هذا يجعلني في حالة أفضل .. »

نعم .. فقط الحب يمكن أن يرغم الفتاة على تحمل فقر كهذا، وهي لا تحبه بالطبع ..

نظر لها طويلاً ، ثم قال :

ـ « ليتك تعرفين كم أحتقر نفسي لأنني أحبك بهذا الشكل ! »

ـ « هذا ليس شيئًا لطيفًا تقوله لي .. أنا أرتاح لك كثيرًا عندما لا تتكلم عن عواطفك أو تظهر حبك لي ..! »

★ ★ ★

13

رسب فيليب فى امتحان التشريح برغم أنه درس الهيكل العظمى جيدًا وحفظ موضع كل ثقب وكل أخدود فيه ، ولكنه وقت الامتحان أصيب بذعر جعله عاجزًا عن الكلام . وجعله هذا الرسوب من العناصر السيئة فى صفه .

لكنه كان فى عالم آخر بسبب عاطفته نحو ملدريد ، وقد شعر أنه ببعض الإصرار والهدوء قد يكسب قلبها أخيرًا .. طلبت منه أن يدعوها للعشاء فأفعمه هذا سرورًا ..

جلس يراقبها وهو يشعر أنها بالفعل لطيفة معه جدًا .. طلبت بعض الأطباق التى تحبها ، ثم سألته :

ـ « هل يمكن أن أقول لك شيئًا ولا تكون سخيفًا معى ؟ »

ـ « هلم .. قولى ما تريدين .. »

ـ « أنا سوف أتزوج ! »

نظر لها ولم يدر ما يقول .. كان قد تخيل هذا المشهد من قبل ، وحلم بالجنون والغضب .. حلم بالانتحار والبكاء .. لكنه هذه المرة ظل صامتًا ولم يقل أى شىء ..

ـ « أنا فى الرابعة والعشرين وقد حان وقت الاستقرار .. »

ـ « ومن هو ؟ »

ـ « ميلر ... »

ـ « لكنك قلت إنك قطعت علاقتك به .. »

ـ « جاء الأسبوع الماضي وطلب يدى .. إنه يكسب الكثير من المال .. سبعة جنيهات فى الأسبوع .. »

ـ « فهمت .. توقعت منك أن تقبلى أعلى عرض .. ومتى يكون الزفاف ؟ »

ـ « السبت القادم .. لقد أبلغت إدارة المقهى .. »

بهذه السرعة ؟.. طلب الفاتورة ودفعها ثم خرج معها واستوقف سيارة أجرة . كان بحاجة إلى النوم .. وقد غرق فيه بمجرد أن لمس رأسه الوسادة ..

★ ★ ★

فى الأيام التالية راح ينظر فى دهشة إلى مدى ضعفه عندما تورط فى هذه القصة ، وكيف سمح لهذه الفتاة أن تهينه وتذله

لهذه الدرجة . لكنه قدر أنه سيشفى من ذكرى هذا الحب الرهيب ، ولسوف ينظر له كما ينظر الثعبان إلى الجلد القديم الذى سلخه فى اشمئزاز .

لو كان هذا هو الحب فهو لا يريد أن يحب ثانية .. لقد شعر بأنه عاد إلى العالم الحقيقى وجماله .

بدأ يستعد لأن عنده امتحانًا فى أغسطس بالإضافة إلى الامتحانين اللذين رسب فيهما . وبالفعل استطاع أن يركز وأن يجتاز ثلاثة الامتحانات مما أعاد له الكثير من الثقة بالنفس .

هنا ظهرت فى حياته فتاة رقيقة اسمها (نورا) منحته حبها وجعلته ينسى تلك التجربة الأليمة . كانت قصصية تكتب باسم مستعار نوعًا سخيفًا من القصص العاطفية التى تعجب بها الفتيات محدودات الثقافة . وكانت تعترف بهذا ...

مرت الأيام بين دراسة فى المستشفى واستذكار ومواعيد مع (نورا) فى وقت الشاى كالعادة ، إلى أن جاء عصر يوم عاد فيه من المستشفى وتأهب لموعده مع نورا هنا جاءت صاحبة النزل لتخبره أن سيدة تنتظره ..

لا يعرف أية سيدة غير نورا ومن الغريب أن تأتى له هنا ..

اندفع خلف السيدة نحو الغرفة التى تنتظر فيها زائرته ، هنا شعر بقلبه يغوص فى قدميه .. كانت هذه ملدريد ..

كانت جالسة فلما رأته نهضت .. لكنها لم تندفع نحوه ولم تتكلم .

ـ « ماذا تريدين بحق السماء ؟ »

لم تجب .. فقط بدأت تبكى ولم تحاول أن ترفع يديها لتغطى عينيها بل تركتهما يتدليان إلى جانبها .. لم يدر ما يفعل وتمنى لو كان بوسعه الفرار من الغرفة ..

قالت له :

ـ « أتمنى لو أننى مت ! »

كانت قدماه تهتزان وهو يحاول بصعوبة أن يظل واقفا وسألها :

ـ « ما الخطب ؟ »

ـ « لقد تخلى عنى ... »

هنا ارتجف ..

وأدرك أنه ما زال يحبها .. يحبها كما كان وأقوى .. وهى الآن أمامه ترتجف ولا تقاوم ..

ـ « اجلسى ودعينى أجلب لك ما تشربين .. »

كانت أكثر نحولاً وجلدها أكثر بياضًا ، وقالت له :

ـ « ليتنى تزوجتك عندما طلبت منى .. »

حاول ألا يقترب منها لكنها وضعت رأسها على صدره وانفجرت فى البكاء .. قال لها:

ـ « يمكنك أن تخبرينى بأى شىء .. فأنا لن ألومك على شىء أبدًا .. »

لقد سافر (ميلر) إلى برمنجهام ووعد بالعودة قبل الثلاثاء ، لكنه لم يعد ولم يرد على أى خطاب منها . ثم إن محاميًا جاءها يخبرها أن زوجها لن يعود وأنه لا حقوق لها عنده ..

ـ « تشاجرنا يوم الأحد وقال إنه قد سئمنى .. أخبرته أننى حامل فقال إننى مجنونة وإن هذا خطئى .. لقد قال لى ألفاظًا سيئة فعرفت أنه ليس رجلاً مهذبًا .. ثم طردتنى صاحبة السكن لأننى لم أدفع الإيجار وليس معى مليم .. »

كانت تخلط الأشياء المهمة بالتفاهات ولم يعد فيليب قادرًا على تبين الحقيقة ، لكن نذالة الرجل بدت له لا تصدق ..

ـ « ولم يكن يكسب ما زعم أنه يكسبه .. كان كذوبًا .. »

قال فيليب :

ـ « أنا لا أفهم هذه الأمور ، لكن لا يمكن أن يمضى حرًا بفعلته .. سوف أكتب لك خطابًا لمحام صديق أبى ، وسوف أدفع له أية نفقات يطلبها .. »

كما أعطاها خمسة جنيهات لأنها كانت مفلسة تمامًا ..

قالت له :

ـ « هل ما زلت مولعًا بى كما كنت ؟ »

ـ « ربما أكثر .. »

انصرفت فجلس شاعرًا بأن قلبه يخفق سعادة ، وراح يردد لنفسه :

ـ « يا للشىء المسكين ..!! يا للشىء المسكين ! »

لقد مرت ثلاث ساعات .. هنا تذكر موعده مع نورا !. لكنه لن يجسر على الكلام معها لذا سوف يرسل لها برقية يعتذر عن تأخره عن موعد الشاى ..

فى اليوم التالى جاءته ملدريد فى الرابعة ، بحيث صار محتومًا أن تضيع موعده مع نورا اليوم . جلست فسألها عما تم مع المحامى .. قالت له :

ـ « لا شىء يمكن عمله .. »

ـ « لكن .. لكن هذا مستحيل .. »

هنا أخرجت من جيبها ورقة مجعدة وناولتها له ، وقالت :

ـ « لم أستطع أن أخبرك أمس .. أنا لم أذهب للمحامى قط .. لم أتزوج ميلر فلديه زوجة وثلاثة أطفال ! »

شعر بعاصفة من ألم وحزن وغيرة تعصف به . إذن لماذا ذهبت معه منذ البداية ؟

ـ « لا أعرف إن كنت أحبه أم لا .. كنت أحب سماع الأشياء التى يقولها فهى تضحكنى .. وقال إنه سيعطينى كل أسبوع سبعة جنيهات .. كان يكذب ولم يكن يكسب كل هذا المال .. كما إننى

سئمت الحياة عند خالتى لأنها تطالبنى بترتيب فراشى عندما أصحو من النوم .. مللت العمل فى المقهى .. لهذا عندما طلب منى الرحيل معه لم أفكر .. »

جلس مهمومًا شاعرًا بمهانة حقيقية .. فنهضت وانحنت عليه وقالت :

ـ « أنا أحترمك يا فيليب وأعرف أنك جنتلمان بكل معنى الكلمة .. لن تخذلنى .. لماذا لا نكون لبعضنا ما دامت الفرصة متاحة ؟ »

لكنه ظل صامتًا .. ثم قرر أن يدعوها للعشاء ، وعرض أن يأخذها لمكان ترفيه حيث مسرح أو موسيقا لكنها رفضت .. ثم قبلت بطريقة تشعره بأنها تضحى من أجل سعادته فقط ..

تناولا العشاء فى حى سوهو وبدا أنها مستمتعة بوقتها لدرجة أنها نسيت أن عليها أن تكون حزينة ، وفى النهاية سألها عما معها من مال فقالت إنها لا تملك شروى نقير .

كان الأمر محرجًا فهو غير قادر على أن يعولها ، وهو بحاجة إلى كل مليم معه .. رأى أن يجعل محاميه يكتب مهددًا ميلر فلو

حصلت منه على مائة جنيه ، لأمكنها أن تنفق على نفسها إلى أن يأتى طفلها للعالم .. لكنها رفضت أن تطلب شيئًا من ميلر .

وجد لها غرفة فى شارع مزدحم من لندن ، وكان يعرف أنها تحب الصخب تحت نافذتها لأنه يشعرها بالحياة ..

كان عليه الآن أن يختار بينها وبين (نورا) الفتاة الرقيقة المرحة التى تحبه حقًا .. هنا وجد لدهشته أنه ليس المهم أن تحَب (بفتح الحاء) بل أن تحِب (بكسرها) فهو يفضل عشر دقائق مع ملدريد على حياة كاملة مع (نورا) .

لا يهمه أن تكون ملدريد قاسية انتهازية سوقية .. هو يحبها وهذا كاف ..

ربما كانت التعاسة مع ملدريد أفضل من السعادة مع سواها ..

هكذا انقطع مرارًا عن موعد نورا ..

قضى وقته ينقل حاجيات ملدريد للغرفة الجديدة ، وينسق حقائبها ، ويعلق اللوحات التى تحملها معها لتعطى الغرفة طابعًا منزليًا .. كان مسرورًا أنها تسكن فى مكان يدفع نفقته وأنه

السند الوحيد لها ، لدرجة أنها جلست منهكة فركع على الأرض وساعدها على خلع حذائها ..

اضطر أن يكذب على نورا كى يلغى موعده معها يوم الأحد كى يستطيع أن يتناول العشاء مع ملدريد قرب النار . وعندما زار ملدريد قالت له إنها لن تستطيع تناول العشاء معه لأنها مشغولة .. لقد وعدت صاحبة المقهى بأن تزورها فى (تولس هيل) غدًا . قال لها :

ـ « لكنى رفضت دعوة فقط كى أكون معك يوم الأحد .. »

ـ « أنت لن تحقد على من أجل هذه الرغبة البسيطة يا فيليب .. أعتقد أننى سأمضى معها ثلاثة أسابيع .. »

قال لنفسه إنها لو كانت تحبه لألغت ارتباطاتها .. نورا ما كانت لتتردد لحظة ..

هنا وجد كتابًا مقلوبًا على المنضدة فتناوله ونظر فيه .. كان قصة من قصص (نورا) التى تكتبها باسم مستعار . قالت ملدريد :

ـ « أحب هذه القصص المؤثرة .. إنها جميلة جدًا .. »

هنا تذكر ما كانت نورا تقوله عن نفسها :

ـ « لدى شـعبية كبيرة لـدى طبقـة الخادمـات .. فهن يعتقدن أننى عبقرية ! »

★ ★ ★

14

اعتاد أن يبتاع لملدريد بعض الفاكهة التى تحبها كلما زارها ، وقد خطر له أنها ستحب بالتأكيد كونه يحقق كل رغبة لها . كـان قد تخلص من نورا بأن أرسل لها خطابًا يخبرها أن ما بينهما يجب أن ينتهى .. لكن نورا أصرت على أن تعقد الأمـور بـأن تـأتى لـه لتسأله عما هنالك .. كان موقفًا عسيرًا لكنـه شعر براحـة عندما تخلص منها فى النهاية ..

كانت ملدريد جالسة تطـالع واحدة مـن قصص نـورا ، فوقف ينظر لها بعض الوقت حتى لاحظت نظرته ، فقالت :

ـ « لا جدوى من النظر يا أحمق .. هلم .. »

ـ « أنت طاغية .. »

قالها وشعر بسرور عظيم . كانت قد قررت أن تضع طفلها فى ملجأ تؤجره صاحبته لحالات مماثلة ، وقـالت إن الطبيب قـال إن حملها بخير لكن الـولادة ستكلفها خمسـة عشر جنيهًا .. كـان بوسعها أن تجد طبيبًا أفضل لكنها لم ترد أن يغرق المركب بسبب توفير ثمن القار ..

قال لها :

ـ « لا يهم .. ما دمت مستريحة له فسوف أدفع .. »

كانت تنظر لكل ما يقدمه لها على أنه شىء طبيعى جدًا .. وكم من مرة أعطاها خمسة جنيهات لأنها لم تكن تجيد الاقتصاد .. وكانت تنوى أن تترك الطفل لتربيه إحدى نساء الريف مقابل سبعة شلنات فى الأسبوع لأنها بحاجة للعودة للعمل ولا تريد أن تتقيد بطفل ..

ـ « لا تقلق .. لن أطالبك بدفع ثمن تربيته كذلك .. أنت كريم جدًا معى .. تذكر أننى عرضت أن أقدم لك ما تريد مقابل ما منحته لى .. »

تناول يدها ، وقال :

ـ « أنت لست مدينة لى بشىء .. ولا أتوقع أن آخذ منك شيئًا ما لم تحبينى .. »

كان سعيدًا لمجرد أنه بجوارها ، وكانت رغبة مجنونة تدفعه إلى أن يضحى بنفسه من أجلها ..

أخيرًا جاء موعد الولادة فذهبت إلى الملجأ واختلقت قصة عن أنها زوجة جندى بريطانى فى الهند . وزعمت أن فيليب هو أخو زوجها ..

أخيرًا أنجبت طفلة .. عندما دخل ليراها وجدها منهكة متعبة لكنها سعيدة لأن كل شىء انتهى .. وقف ينظر لهما عاجزًا عن الكلام ، ولاحظ فى حرج أن الممرضة تراقبه بعناية ، فهى لم تصدق حرفًا من قصة ملدريد وتعتقد أنه هو الأب ..

★ ★ ★

بعد تماثلها للشفاء أرسلها إلى (برايتون) حيث تتوقع أن تجد من يربى لها ابنتها ، ولقد أثار قلقه ودهشته هذه السهولة التى تتخلص بها من ابنتها .. صحيح أنها قالت إن التخلص من الطفلة ضرورى قبل أن تتعودها ، لكنه كان يأمل أن عاطفة الأمومة ستكون لديها أقوى من هذا .. فى الواقع كانت لا مبالية بالطفلة على الإطلاق .. وكان مخه مليئًا بقصص مرعبة عما يحدث للأطفال الذين يعهدون بهم لأهل غير أهلهم ، لكن ملدريد قالت له :

- « لا تكن سخيفًا .. هذا يحدث لو أعطيتهم المال مرة واحدة ، لكنى سأدفع على أساس أسبوعى .. »

كان قلبه يتمزق من أجل الطفلة .. قبيحة مجعدة عارية وحيدة هشة .. لا يحبها أحد حتى أمها .. وتعتمد عليه بالكامل هو فيليب فى طعامها وكسائها ..

راح يدرس بجد ، وفى الوقت نفسه يختلس الوقت كل يوم كى يكتب لها خطابًا طويلاً يصب فيه روحه .. وحينما أنجز الامتحان شعر برضا عن إنجازه وأدرك أنه نجح حتمًا ..

عادت معه إلى لندن حيث قام معها بجولة فى المسرح والمطاعم .. وكانت هذه أول مرة تتنزه فيها منذ أشهر لذا استمتعت بكل شىء ..

كانا جالسين فى أحد المطاعم عندما ظهر صديقه (جرفيث) . كان شابًا وسيمًا فارع الطول له مظهر مقتحم جذاب .. رآهما فحياهما بابتسامة ..

لاحظ فيليب أن ملدريد تنظر باهتمام لصاحبه ، وكان يحبه كثيرًا لذا شعر برضا عن إعجابها به ..

كان (هارى جريفث) قد أنهى امتحاناته وصار نائب جراحة فى مستشفى فى شرق لندن ، وكان ينوى العودة لبلدته فى إجازة قصيرة ..

كان بطبعه مرحًا وقد أضفى على جلستهما الكثير من البهجة ، حتى نسيت (ملدريد) آلامها وتحفظها وراحت تضحك ، وقد سر فيليب لهذا ..

بدأ جرفيث يحكى عن فيليب وكانت ملدريد تعرف جرفيث جيدًا من فيليب ، هكذا صاروا متعارفين بسرعة .. وعندما عادا إلى مسكنها قالت له وهى تودعه :

- « شكرًا على هذه الأمسية الجميلة يا فيليب .. قل لصديقك هارى إننى صرت مجنونة بحبه .. »

كان متأثرًا لدرجة أنه شعر بعينيه تغرورقان بالدموع .

في اليوم التالي كانا يتناولان الشاي عندما ظهر (جريفيث) وألقى بنفسه على مقعد ثالث . راحَ يتكلم مع ملدريد في مرح أما فيليب فجلس يراقبهما .. كان واثقًا من نفسه كأنه زوج محب يعرف أنه مهما مازحت زوجته الأغراب فهي له في النهاية ..

في النهاية نظر فيليب إلى ساعته وأعلن أن وقت العشاء قد حان ، وتهيأ جريفث للرحيل ، لكن ملدريد أصرت على أن يتناول العشاء معهما ..

هنا نهض جريفث ليغسل يديه . التفت فيليب إلى ملدريد في غضب ، وقال :

ـ « لماذا دعوته إلى العشاء معنا ؟ »

تقلصت شفتاها قليلاً ، وقالت :

ـ « لا شيء .. خجلت من أن نذهب للعشاء وحدنا .. ثم إنني أحتاج لبعض التسلية أحيانًا .. »

عاد جريفث فخرج الثلاثة للعشاء .

طيلة الوقت ظل فيليب صامتًا مغتاظًا ، بينما راحت ملدريد تظهر لجريفث كم هي لطيفة مرحة . وفي العربة أثناء العودة جلست هي بين الشابين ووضعت يدها على يد فيليب فسره هذا .. هنا لاحظ أنها تضع يدها الأخرى على يد جريفث ..!

ذهبوا لحفل موسيقى .. وتعمد فيليب مدفوعًا برغبة خاصة فى تعذيب الذات أن ينهض بعض الوقت ليراقبهما من الشرفة ، فوجد أنهما يتكلمان ويضحكان ولا يلاحظان البتة أنه نهض . فلما عاد خيل له أنه رأى نظرة مقت فى عين ملدريد .

إنهما يميلان لبعضهما وهو لا يمثل لهما شيئًا سوى الغبى الذى دفع ثمن العشاء والسيارة والحفل الموسيقى .. يا لها من مهانة !. كان الألم ينمو فى داخله وبدأ يتلذذ به ويستعذبه ..

وعندما عاد مع صديقه وحدهما ، مد صاحبه يده ليتأبط ذراعه لكنه سحب ذراعه منه ، وبلا تمهيد سأله :

ـ « هل وقعت فى حب ملدريد ؟ »

بهت صاحبه للحظة ، ثم هتف :

ـ « هل لهذا كنت تتصرف بطريقة غريبة طيلة السهرة ؟ »

هنا فقد فيليب كل سيطرة له على كبريائه ، وقال وهو يقاوم البكاء :

ـ « أنت لديك حبيبات كثيرات بينما أنا ليس عندى سواها .. أنت تعرف كم أنا متعلق بها ؛ لذا أرجوك أن تتركها لى ! »

هتف جريفث فى صدق :

ـ « أيها الشاب العجوز !. لم أعرف أنك تفسر الأمور بهذه الطريقة .. دعنى أؤكد لك أنها لا تعنى لى أى شىء .. لك كلمة شرف منى أنها لا تهمنى البتة .. »

أطلق فيليب تنهيدة ارتياح وأمسك بذراع صاحبه ومشيا معًا ..

★ ★ ★

15

عندما جلسا على مائدة العشاء فى ذلك المطعم ، لم يكن (جريفث) هنا .. قال لها فيليب فى مرح إنه متأكد من أنها تفتقد (جريفث) .. فقالت بلهجة محايدة :

ـ « قلت لك إننى مجنونة بحبه .. »

ـ « هذا شىء .. لكن الأهم هل يحبك هو ؟ »

ـ « وماذا تعنى ؟ »

ـ « هو لا يبالى بك .. أنا سألته .. »

بلا كلمة مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت خطابًا .. كان بخط (جريفث) موجهًا لها ، وكان الخطاب يبدأ بعبارة (حبيبتى ملدريد) .. ثم راح الخطاب يصف حب (جريفث) المحموم لها وكيف أنها غيرت كل شىء فى حياته فلم يعد يفكر إلا فيها ، وكيف أن ضميره معذب لأنه يحب فيليب ولا يريد أن يؤذيه بهذا العمل الأخرق لكنه لا يستطيع السيطرة على عواطفه ..

نظر فيليب إلى تاريخ الخطاب فوجد أنه كتب ليلة أمس .. أى أن جريفث كتبه بعد ما تركه أمس .. كتبه وأرسله بعد ما وعده بأن الفتاة لا تهمه فى شىء ..

نظر لها وقلبه يغوص وإن حرص على عدم إظهار شيء على ملامحه ، وسألها :

ـ « وما رأيك ؟ »

قالت :

ـ « ماذا بوسعى أن أفعل ؟.. ليست عواطف المرء بيده .. الحقيقة إننى متعلقة به جدًا .. »

ظل صامتًا ، فقالت :

ـ « لابد من أعترف أنك تتعامل مع الأمر بهدوء .. »

ـ « ماذا تتوقعين ؟.. أن أمزق شعرى وأصرخ ؟ »

ـ « أعترف بأنك أذكى منى .. أنا لست بارعة لكن هذا ليس بيدى .. لكن لا أدرى لم يجب أن تعاملنى كلتنى .. لا أعرف بالضبط .. »

ـ « لم أوجه لك أى لوم ، لكن اللوم كل اللوم لهذا الذى أقسم لى أنه لا يبالى بك ثم عاد لداره كى يكتب لك هذا الخطاب .. »

ـ « أنت لن تجعلنى أحبه أقل بقول هذا الكلام السخيف عنه .. »

ـ « هو لا يبالى بأية قصة أكثر من عشرة أيام .. وأنت باردة العواطف لا يمكن أن تضحى بكل شيء من أجل نزوة كهذه .. »

ـ « هذا ما تظنه أنت . يجب أن تعرف أننى لم أشعر بأى ميل نحوك منذ البداية ، ولن أتركك تلمسنى حتى لو كنت أموت جوعًا .. »

وكان صوتها ونبرتها قد بدأا يتخذان النبرة السوقية المتنمرة التى كانت تخفيها بعناية ..

كان يرتجف وحاول أن يبتلع الطعام فلم يقدر ..

كانت ساعة قد مضت عليهما ، وبدأت الساقية تنظر له فى ارتياب ؛ لذا طلب دفع الحساب .. هنا بحثت ملدريد فى حقيبتها عن ورقة وضعتها أمامه .. وجد أنها فاتورة ثوبها الجديد الذى ترتديه الآن .. قالت له إن عليه أن يدفعه . نظر لها فى دهشة ، فقالت :

ـ « هل تعنى أنك لن تدفع ثمنه بعد ما قلت لى إن وسعى أن احصل عليه ؟ »

ـ « اطلبى من (هارى) دفعه .. سوف يسر بذلك خاصة وهو اقترض منى سبعة جنيهات هذا الأسبوع .. »

ـ « أنت لن تفزعنى بهذا .. »

كانت تفكر فى الإيجار ومصاريف رعاية ابنتها ، لكنها لم تظهر هذا .. خرج معها ومشى مبتعدًا .. هنا نظر للخلف فوجد أنها واقفة عاجزة عن عمل شىء . عاد لها ودس قطعة عملة فى يدها من أجل سيارة الأجرة ثم ابتعد ..

* * *

ظل طيلة اليوم التالى فى الفراش منهكًا غير راغب فى عمل شيء ، ولم ير (جريفث) قط .. عند الظهيرة سمع طرقة على الباب فاتجه ليفتحه .. هنا وجد ملدريد واقفة ..!

دهش عندما وجدها تقول :

ـ « شكرًا لدفعك ثمن سيارة الأجرة .. أنا لم أعد مرتبطة بـ (هارى) .. أنت عرضت علىّ أن أصحبك يومًا إلى باريس ، فلو لم تزل راغبًا فى أن أصحبك أنا موافقة .. »

شعر برجفة تسرى فى عموده الفقرى ، ثم سألها فى شك :

ـ « عدت من أجل المال ؟ »

أجابت ببساطة :

ـ « نوعًا .. هارى لا يقدر على أى شيء... لقد رهن كل شيء فى متناول يده . كما أننى لا أستطيع العودة للعمل فى المقهى لأن امرأة أخرى أخذت مكانى .. »

كانت تتحدث بطريقة عادية كأنها تشكو ظلم الأقدار لها لا أكثر ..

ـ « ثم إن هارى قال لى ما قلته عنه .. قال إنه لا يتحمل مسئوليات وإنك أفضل منه ، وإننى أكون مجنونة لو تخليت عنك .. »

ثم إنها جلست وانفجرت فى بكاء حار عنيف ..

لم يكن قد رأى من قبل امرأة تبكى بهذه الحرارة ولم يعد يدرى ما يفعل أو يقول ..

خطرت له فكرة غريبة فدنا منها ، وقال :

ـ « اسمعى .. عودى لهارى وسوف أمنحك المال الذى تريدين ! »

رفعت عينيها نحوه غير مصدقة ، لكنه قال :

ـ « نعم ... »

عادت الحياة إلى ملامحها وبدت فى غاية السعادة ، وهتفت :

ـ « هذا مستحيل .. أنت أفضل شخص قابلته فى حياتى .. إن هذا لا يصدق .. هارى سوف يعرف أنك لست غاضبًا عليه وسوف يعود لى ؛ لأنه قال إنه لا يقدر على البقاء معى ما دمت أنت غاضبًا .. »

كان يتمنى أن ترفض العرض ، لكن بدا واضحًا أنها كانت تتمناه ..

الحقيقة أنه كان يحمل دائمًا فى أعماقه رغبة شيطانية فى تعذيب الذات ، وكان الموقف أليمًا أيما ألم ، لكنه وجد فيه لذة وحشية ..

كانت ترغب فى بعض المال كى يمكنها من الذهاب مـع هـارى بضعة أيام إلى أكسفورد ، قبل أن يعود إلى بلدته . وقد منحها فيليب هذا المال .. عرف أنها ستعود يوم الاثنين القادم ووعدتـه بأن تلقـاه لدى عودتها .

قال لنفسه إنها مناسبةٌ جدًا لهارى .. غبيةٌ بليدةٌ مثله وذوقها سوقى .. كلاهما يناسب الآخر ..

★ ★ ★

16

لم يكن ممن يشربون كثيرًا ، لكنه أفرط فى احتساء الويسكى حتى دخل فى شبه غيبوبة لم يفق منها إلا يوم الثلاثاء ، وهكذا استحم وحلق ذقنه ثم هرع إلى بيت ملدريد ..

هنا وجد أنه لا أحد بالمنزل .. وعرف من صاحبة النزل أن ملدريد عادت فجمعت حاجياتها وتركت المكان ولم تترك أى عنوان خلفها !

لقد خدعته كالعادة !. عرفت أنها لن تعود له لكنها وعدته بأن يلقاها يوم الاثنين .. إنها قاسية لم تبال بـه قط .. إنها كذوب .. ولم يجد معها أى شىء فعله من أجلها ..

خطر له أن الألم الذى يشعر به لا يوصف . ربما كانت الطريقة الوحيدة للقضاء عليه هى أن ينسف رأسه برصاصة أو يضع رأسه على قضيب القطار ، لكنه كان يعرف أنه لن يفعل .. لديه حياة واحدة فلن يبددها على فتاة رخيصة بلهاء . مهما كان الألم عنيفًا فهو يعرف أنه سيزول مع الوقت .. هذا شىء لا مفر منه ..

ما أثار جنونه هو أنه كان يعتبرها باردة العواطف بلا إحساس .. هو ذا يراها مرتين تندفع وراء عواطفها إلى حد التضحية بكل شىء .. ما الذى رأته فى ميلر وجريفث لهذا الحد ؟

لم يبق معه إلا سبعمائة جنيه عليه أن ينفقها بحكمة . من الغريب أن يتذكر كم من المال أنفق على ملدريد ، لكنه يعرف أن الزمن لو عاد لأنفق ذات المبالغ وفعل ذات الأشياء ..

كم سيندهش رفاقه الذين يرون حركاته البطيئة وجمود سحنته فيحسبون هذه من علامات التصميم والبرود ، لو عرفوا أنه هش مندفع ذو عواطف مجنونة !

بدأ بترك مسكنه الذى كان مكلفًا ويحمل له ذكريات أليمة ، ووجد لنفسه مسكنًا ذا أربع غرف ويرغم هذا هو رخيص الثمن ، نقل له حاجياته وثيابه ولوحاته ..

انهمك فى الدراسة .. تعلم تضميد الجروح وراح يمارسه فى العيادة الخارجية .. تعلم استخدام المسماع .. تعلم كتابة الأدوية .

تحاشى لقاء جريفث .. وعرف من رفاق مشتركين أن جريفث يقتله الندم . لكن هذا بدا له سخيفًا مبتذلاً .. ما أسهل أن ترتكب أفظع الجرائم ثم تندم بشدة بعدها .. كأنك بهذا الندم تبيح لنفسك عمل أى شىء فيما بعد .. إنه قد يفهم الأخطاء لكنه لا يفهم كل هذا الندم بعدها ..

عرف من رفاقه تفاصيل علاقة ملدريد مع جريفث .. لقد شعر بأنه لا يطيقها عندما كانا فى أكسفورد ، وقد أصر على العودة مبكرًا لكنها طلبت البقاء بضعة أيام أخرى وحدها .. وراحت

تمطره بخطاباتها .. وجد هو أن الخطابات عبارة عن عاطفة خرقاء سوقية ، ولم يعد قادرًا على الرد ..

كانت تثير ملله لكنه كان لطيف المعشر من الطراز الذى لا يحب المشاجرات .. هكذا راح يتحاشاها وطلب من صاحبة النزل أن تخبرها أنه غير موجود فى أى وقت تمر عليه فيها . لكن ملدريد كانت لحوحًا إلى درجة أنها جلست على عتبة الدار وراحت تبكى فى حرقة ، إلى أن هددتها صاحبة النزل بأن تستدعى الشرطة ..

قال له أصحابه :

- « أنت سعيد الحظ للخلاص منها .. يقول (جريفث) أنه لو تخيل لثانية أنها ستكون مزعجة لهذا الحد ، لما فكر فى بدء هذه القصة .. »

ثم عرف أن (هارى جريفث) اضطر فى النهاية إلى أن يخبرها بأن ما بينهما انتهى .. كان غليظًا لكنه مضطر لذلك ..

هكذا لم يسمع عنها فيليب ثانية ، لأنها ذابت فى زحام لندن المرعب ..

★ ★ ★

راح يساعد د . تيريل يومين فى الأسبوع فى عيادته . هناك كان عليه أن يسجل الحالات بينما يكشف الطبيب المقيم على

المرضى الفقراء ، ويصرف لهم علاج أسبوعين ، على أن يستبقى الحالات الأصعب بانتظار قدوم د . (تيريل) لأخذ رأيه . وكان هذا الأخير رجلاً مرحًا يكسب جيدًا ، وذا عين حساسة للفقر ؛ لذا كان يتخلص من المريض الذى تبدو عليه أية علامة ثراء ، قائلاً إنه ما دام قادرًا على ارتداء هذه الثياب فهو قادر على الذهاب لعيادة طبيب ، أما المستشفى فمشروع خيرى للفقراء حقًا ..

وكان فيليب يراقب المرضى : الفقراء والمصدورين والعمال .. النسوة العجائز والرجال الذين دمر الكحول أكبادهم . كان يراقب هذا كله باهتمام ويحفظ كلماتهم .. وقد خطر له إنه ربما وجد أخيرًا الشىء الذى كان يصبو له .. المهنة التى خلق لها فعلاً ..

لم يكن هناك وقت للعواطف .. الشابة الجميلة التى تأتى مع أختها ، وبفحصها يتضح أنها مصابة بالدرن .. تنفجر الأخت باكية لأن هذه الشابة آخر من بقى من أسرتها .. تخرج معها ، ويسأل فيليب الطبيب عن الوقت الباقى للشابة فى الحياة ، فيقول له :

ـ « لو كانت من أسرة ثرية تقدر على السفر لسان موريتز فلربما طالت حياتها قليلاً ، لكن بالصورة الحالية أمنحها ثلاثة أشهر .. »

والرجل القوى الذى فحصه الطبيب فوجد أنه سيموت لو لم يتخذ لنفسه عملاً أخف .. لكن الرجل يقول إنه لو لم يعمل فلن

يستطيع إطعام زوجته وأطفاله . فليقل الطبيب ما يشاء ... هو يشعر بأنه بخير .. هكذا يكتب له مزيجًا لا نفع منه ويطلب منه أن يأتى بعد أسبوع ..

ويخرج الرجل ، فيقول الطبيب :

ـ « أنا أمنحه عامًا .. »

هذه الغرف كانت تحوى الدعابة والقسوة .. السهولة والتعقيد .. السعادة والقنوط .. حب الأمهات لأطفالهن وحب الرجال لفتياتهم .. زوجات معدومات الحيلة .. أطفال يحتضرون .. هنا يمشى الموت وهنا تمشى بداية الحياة .. هنا يكمن العار والشهوة .. لم يكن هنا ما هو طيب وما هو قبيح ..

فقط كانت هناك الحقائق .. كانت هناك الحياة ..

* * *

17

ذات صباح طلب منه الطبيب المقيم أن يكتب بيانات مريض . قالت البيانات إن مهنة الرجل صحفى واسمه (ثورب أثلى) . كان فى الثامنة والأربعين مصابًا بالصفراء .. صغير الحجم له عينان زرقاوان وأنف نبيل قوى الشخصية . قال لفيليب عندما سأله عن الجريدة التى يكتب لها :

ـ « أنا أكتب فى كل الصحف .. ليس بوسعك أن تفتح جريدة فلا ترى كتاباتى .. »

وفتح جريدة جواره على الفراش ، فرأى فيليب إعلانًا عن شركة ملبوسات ... كان الرجل هو ممثل الصحافة لدى هذه الشركة ومصمم حملاتها الدعائية .

رأى فيليب جوار الفراش كتابًا يحوى مجموعة من الأشعار الأسبانية لـ (سان خوان ديلا كروز) ، وعرف أن الرجل يقرض الشعر هو نفسه .. كان الرجل يحاول إقناعه بتعلم الأسبانية لأنها لغةٌ رائعةٌ تتدفق كالنار فى دمك ..

توطدت علاقته بالرجل ، وفهم أنه ليس فقيرًا بحيث يحتاج للعلاج هنا ، لكن لديه تسعة أبناء أرسلهم لمدارس داخلية ، وهذا يكلفه الكثير من المال ؛ لذا هو بحاجة إلى أن يستفيد من أية خدمة يقدمها له المجتمع .

عرض (ثورب) على فيليب أن يزوره يومًا ما فوافق هذا الأخير ..

* * *

غادر ثورب المستشفى بعد عشرة أيام ، وقدم بطاقته لفيليب مع وعد منه بأن يتناول معه العشاء الأحد القادم فى بيته .

هكذا ذهب فيليب إلى الموعد ليجد بيتًا جميلاً ينم عن ذوق حسن . لكن كل شىء فيه يوحى بتقليد الطابع الأسبانى . دخلت طفلة جميلة لتقول :

ـ « بابا .. أمى تقول لك أن تأتى للعشاء .. »

قال يقدمها لفيليب :

ـ « هذه ابنتى الثالثة .. اسمها (ماريا دل بيلار) لكننا ندعوها (جين) للتسهيل .. (جين) . أنفك بحاجة إلى التنظيف .. »

اقتاده الرجل إلى غرفة جدرانها مبطنة بخشب البلوط حيث كانت مائدة ضيقة فى وسط المكان ، وعلى الجدران رسوم أسبانية . كل شىء كان ضخمًا أنيقًا وغير مريح على الإطلاق .. ولم يكن فى الغرفة أى شىء ذو قيمة لكنها كانت جميلة فعلاً .

هنا دخلت القاعة فتاة فارعة القوام بنية الشعر تخبر أباها أن أمها آتية بعد العشاء فقدمها (ثورب) لضيفه :

- « ابنتى الكبرى سالى .. لكن اسمها الأصلى هـو (ماريا دل سول) .. إنها فى الخامسة عشرة .. »

والغريب أن الرجل اقتاد فيليب إلى المطبخ ليقدمه لامرأته التى كانت واقفة أمـام الموقد تشوى بعض البطـاطس . كـانت امـرأة ضخمة شقراء لها ملامح وسيمة طيبة أرهقتها العنايـة بكل هذا العدد من الأطفال . وكان الأطفال أصحاء متوردى الوجوه وكلهم يحمل أسماء أسبانية .

عاد الرجلان للغرفة فاعتذر فيليب لمضيفه عن القلق الذى سببه ، لو كان يفضل أن يأكل مع أسرته فى المطبخ ، فقال ثورب :

- « لا .. أفضل أن آكل وحدى هنـا لأننـى لا أحب أن تجلس النسوة مع الرجال على مائدة واحدة . إن عقلهـن تدخلـه الأفكـار والأفكار تؤذى مخهن الصغير .. »

ثم راح يأكل الطعام مرددًا :

- « هل ذقت طعامًا شهيًا كهذا من قبل ؟.. هذه مزيـة ألا تتزوج امرأة من أصل راق ! زوجتى كان أبوها فلاحًا لهذا هى (ست بيت) بالمعنى الكامل للكلمة ، وهى تحب الأطفال ويبدو أنها لن تتوقـف عن الإنجاب حتى يكون عندنا عشرون منهم .. »

هنا دخلت سالى تقدم الشراب ، فطوق ثورب خصرها بيده وقال :

ـ « هل رأيت أجمل من هذه الحسناء ؟ . خمسة عشر عامًا وبرغم هذا تبدو فى العشرين ، ولم تمرض قط طيلة حياتها .. أنا فخور بها وأحسد المحظوظ الذى سيتزوجها .. »

ابتسمت الفتاة فى خجل وتملصت من أبيها وطلبت منه أن يأكل قبل أن يبرد الطعام .

قال الأب :

ـ « أنا كنت متزوجًا من سيدة راقية قبل هذا .. اللعنة !. الرجل يريد امرأة تطبخ له بودنج الأرز يوم الأحد . ولا يريد امرأة تناقشه فى حساب التفاضل والتكامل .. سالى تعلمت الكثير وسوف تنسى الكثير لكنها لن تنسى أنه لابد من طبخ بودنج الأرز يوم الأحد .. هذا شىء مقدس بالنسبة لنا .. »

انتهى العشاء فدخلت السيدة وهى تلبس قفازيها وقد ارتدت ثوبًا أسود أنيقًا وأعلنت أنها ذاهبة إلى الكنيسة للصلاة .. وقالت فى مرح :

ـ « ثورب لا يذهب للكنيسة أبدًا .. إنه أقرب إلى زنديق .. »

ثم حيت فيليب وطلبت منه أن ينتظرها على الشاى ..

قال ثورب بعد انصرافها :

ـ « النساء ذهبن للكنيسة .. أنا أؤمن أنه على النساء أن يكن متدينات .. إن الدين خير مهذب للأخــلاق ، وأنــا مؤمـن أن الديـن يعلمك الأخلاق خيرًا من أى فلسفة ... فلو فقدت إيمـانك بـالدين فإنه يترك لك الأخلاق على الأقل .. »

ثم فتح درجًا أخرج منه بعض الصور التى رسمها (الجريكو) الفنان الأسبانى الشـهير ، وراح يعرضها على فيليب الذى رأى رسم هذا الفنــان للمرة الأولـى .. السماء المكفهـرة والأجســاد الطويلة والعيون المعذبة ..

شعر بأنه يعبر إلى عالم جديد غريب لم يعرفه من قبل ..

عندما عاد الأطفال من الكنيسة ملئوا المكان بـالصخب واقتحمـوا خلوة الرجلين .. وكانت الأم قد طلبت من الأب أن يسليهم إلى أن تنتهى من عمل الشاى . هكذا جلس الأب يحدثهم بقصة من قصص (هانز كريستيان أندرسن) بينما فيليـب يراقبه . فهو لـم يجرب قط دفء الأسرة ..

جـاءت سـالى تعد المـائدة وتـوزع أقـداح الشـاى ، بينمــا الأب يطريها بلا توقف وهى تبتسم ولا ترد ..

ـ « تصور أن أحد الخياطين تطوع فى الجيش لأنها ترفض أن ترد عليه تحياته ؟.. تصور أن كهربائيًا مرض لأنها رفضت أن تقرأ معه فى نفس كتاب الصلوات فى الكنيسة ؟.. إنها قاسية. لكنى أحسد زوجها .. »

ثم جاءت الزوجة، ولاحظ فيليب أن لهجتها مألوفة فى الكلام .. عرف أنها من مقاطعة (كنت) وهذا يعنى أنها قريبة من الوسط الذى كان يعيش فيه مع عمه فى (بلاكستابل) . اتضح أن المرأة تعرف عمه فعلاً .

وفى العاشرة جاء الأطفال ليقولوا له (تصبح على خير) ويلثموه على خده ما عدا سالى طبعًا .. مدت له يدها فصافحها ..

لما انصرف تلقى دعوة للعشاء الأحد القادم .. قالت الزوجة إنه يحسن لزوجها كلما جاء ليتكلم معه ..

أخبرها فيليب أنه سيأتى فقط لتناول الشاى ، وفى اليوم المختار ابتاع كعكة كبيرة كى لا يكلفهم شيئًا .. هذه الكعكة جعلته يكسب قلب الأطفال ..

★ ★ ★

18

فى ساعةٍ مبكرةٍ من النهار كان يركب الحافلة .. وترجل منها ونظر إلى الجانب الآخر من الطريق ..

هنا رأى ملدريد .. أصابه الذهول ولم يكن يرغب فى أن يكلمها لكنه لم يستطع أن يبعد عينه عنها .. وقف يراقبها وهى تعبر الشارع وكانت منهمكةً تمامًا فلم تلحظ أنه واقف هناك ..

كانت تجوب الإفريز جيئةً وذهابًا .. ماذا تفعله هنا ؟.. لماذا هى هنا فى هذه الساعة المبكرةَ ؟

كان هناك رجل يقف على الناصية .. فمرت به ونظرت له وابتسمت ثم واصلت الطريق والتفتت نحوه . لكن الرجل واصل القراءة فى جريدته .. هكذا واصلت طريقها !

أصيب فيليب بالذعر فلم يدر بنفسه إلا وهو يعبر الطريق مسرعًا ليلمس كتفها ..

ـ « ملدريد ! »

استدارت مذعورة فى شىء من التوحش .. ووقفا يتبادلان النظرات ..

لم يجد ما يقول .. وتزاحمت العبارات فى رأسه .. وفى النهاية قال :

ـ « هذا فظيع ! »

لم ترد فقال لها :

ـ « يجب أن نجلس فى مكان نتكلم فيه .. »

ـ « لا أريد الكلام .. اتركنى وشأنى .. »

ثم أضافت :

ـ « كنت فى طريقى إلى البيت ويجب أن أقابل إحدى الفتيات هنا .. »

ـ « بحق السماء كفى عن الكذب !. »

هنا أدرك أنها تبكى .. فعاد يكرر السؤال .. قالت :

ـ « هناك غرفة قريبة من هنا ، يتقاضون ستة شلنات فى الساعة .. »

ـ « إذن فلنذهب هناك .. »

واستوقف سيارة أجرة وذكرت هى العنوان للسائق ..

كان العنوان خلف المتحف البريطانى .. فتحت لهما الباب سيدة عجوز تبادلت كلمات بصوت خفيض مع ملدريد ، ونظرت بحدة لفيليب ثم اقتادته ملدريد إلى غرفة مظلمة داخلية ، وأشعلت مصباحًا يعمل بالكيروسين ..

كانت غرفة نوم قذرة لها ستائر متسخة ، وقد جلست على أريكة بينما جلس هو على طرف الفراش .. الآن يرى وجهها فيدرك أنها ازدادت شحوبًا برغم طبقة الأصباغ الكثيفة التى تضعها .. لم يستطع فيليب الكلام بسبب غصة توشك على أن تخنقه .. وشعر بأن اى شىء يقوله قد تفهمه على محمل الشماتة أو التأنيب .

قالت له :

ـ « أنت تعرف أنى لا أفعل ذلك لأننى أحبه .. أليس كذلك ؟ »

ـ « أين الطفلة ؟ »

ـ « معى هنا فى لندن .. ليس بوسعى تركها والإنفاق على تربيتها .. لم أجد أى عمل فى أى مكان حتى فى المقهى .. لم أرد أن أكتب لك لأننى توقعت أن ترد بأننى نلت ما أستحق .. »

ـ « أنت لا تعرفيننى على الإطلاق ... .. »

وتذكر ما سببته له من ألم .. لكنه كذلك إذ نظر لها أدرك أنه لم يعد يحبها على الإطلاق ..

ـ « هل معك مال يا فيليب ؟ »

مد يده فى جيبه وأخرج جنيهين هما كل ما كان معه .. قالت له وهى تأخذ المال :

ـ « أنت جنتلمان حقيقى .. الوحيد ممن قابلتهم .. على فكرة أنا مسرورة لأننى تمكنت من الجلوس بعض الوقت .. »

هذه الكلمات مزقت قلبه . وأدرك أنها تبكي :

ـ « ليتنى أخرج من هذه الحياة .. أنا لم أخلق لها .. ليتنى أعمل خادمة فى أى مكان .. ليتنى أموت .. »

هنا خطرت له فكرة .. لم لا تأتى وطفلتها لتقيم فى شقته فى (كنجزتون) وبهذا توفر نفقات المسكن ، وتساعد فى تنظيف البيت .. ولن يكلفه طعامها الكثير هى وطفلتها ؟

قالت له بعدما عرض عليها فكرته :

ـ « هل تعنى أنك ستقبلنى بعد ما عملته معك ؟ »

قال فى حذر :

- « لأكن واضحًا .. أنا أقدم لك المسكن فقط .. لا أريد أى شىء منك .. ربما بوسعك أن تطهى لنا الطعام .. »

نهضت نحوه فمد يده يحذرها من الدنو .. لا يعرف السبب لكنه لم يطق فكرة أن تلمسه . سألته :

- « متى يكون بوسعى أن آتى ؟ »

- « غدًا .. »

وكتب لها العنوان ..

* * *

جاءت فى الوقت المحدد .. كائنًا يثير الشفقة بنحولها وشكلها السقيم والطفلة بين ذراعيها . كانت معها ثلاث حقائب تحوى متاعها القليل لأنها اضطرت لبيع كل شىء ..

راحت تفرغ حاجياتها بعد أن عرفت الغرفة التى ستقيم فيها . أما هو فجلس يدخن ويقرأ شاعرًا بسعادة عارم .. لقد تحرر منها أخيرًا ولم يعد يستشعر نحوها أى حب .. لو لمسته لاقشعر بدنه ..

عادت له وسألته عن العشاء فقال لها إن عليها أن تنزل لابتياع ما تعتقد أنها قادرة عى طهيه ، ناولها بعض المال .. ولاحظ أنها متقطعة الأنفاس فقال إن الأنيميا قد اشتدت عليها .. سيكون عليها أن تتعاطى أقراص الحديد .

ذهبت إلى المتجر فابتاعت بعض الكبد ، والفكرة هنا أنك لن تأكل منها الكثير لذا هى وجبة اقتصادية .

أعدت له الطعام ثم دخلت الحجرة فناداها متسائلاً عن سبب عدم تناولها الطعام معه ؟.. قالت :

ـ « أنا الخادمة .. أليس كذلك ؟.. ربما لا تحب أن تأكل معى .. »

ـ « لا تكونى حمقاء .. هلم .. تذكرى أنك تمنحيننى الخدمة وأنا أمنحك المسكن والطعام .. هذه صفقة عادلة ولست مدينة لى بشىء فلا داعى لهذا الانكسار .. »

كان يعرف أن خدمته أمر مهين لها .. وتذكر كيف كانت فى الماضى ..

طلب منها أن تنام مبكرًا لأنها مرهقة . فقط ذكرها بأن توقظه فى الثامنة وتقدم له الإفطار لأن لديه محاضرة مهمة فى التاسعة ..

دخلت الحجرة وأغلقت الباب ، وسمع صوت صرير الفراش لبعض الوقت ..

عندما عاد منهكًا فى المساء وجدها جوار النافذة عاكفة على خياطة جواربه... الطفلة كانت على الأرض فانحنى جوارها وراح يدغدغ أصابعها وهى تضحك ..

هكذا مرت الأيام بلا أحداث ..

جعل ملدريد تدرك أن علاقته بها رسمية تمامًا .. تعد له الإفطار ويذهب للمستشفى بينما تنظف هى البيت وتبتاع ما يلزمه ، وعند المساء يتناولان العشاء ثم تدخل حجرتها وتنام .

كونت صداقات مع جيرانه الصموتين ، بعد أسبوع صارت تعرف عنهم أكثر مما يعرفه بكثير .

ثم جاءت ليلة صيف هادئة طلبت منه فيها أن يخرجا معًا بعض الوقت .. إن الطفلة نائمة ومن المعتاد ألا تصحو فى الليل أبدًا .. كانت سعيدة جدًا فلم يجد مفرًا من القبول . وكانت المحلات مفتوحة والناس فى كل مكان .. بدت له من فرط الحماس أصغر بعدة سنوات .. ووجهها اكتسب مسحة جميلة .

شعر بالشفقة عليها وقال لنفسه إنها ضحية ظروف أساءت تربيتها ولم تكن حياتها سهلة بحال .. من سويداء قلبه غفر لها ما سببته له من متاعب ..

عندما عادا تأبطت ذراعه ، وقالت له :

ـ « أنا سعيدة جدًا يا (فيل) .. »

لم تقل له (فيل) من قبل .. لكن (جريفث) كان يقولها دومًا .. وتذكر فيليب كيف سببا له تعاسة لا توصف وكم تمنى الموت وقتها حتى فكر فى الانتحار .. ماذا بقى من هذا ؟.. لاشىء .. فقط مجرد شفقة عارمة على حالها .

عندما عادا إلى البيت طلب منها أن تنام ، وانطلق إلى موعده عند آل (أثيلنى) .. الأسرة الطيبة التى أدرك أن كل من فيها يحب قدومه وينتظره ..

★ ★ ★

19

ظلت ملدريد صامتة مقطبة طيلة اليوم التالى ، وعندما سألها عن سبب صمتها قالت :

ـ « أنا أتقاضى راتبى كى أنظف وأطبخ .. لا أحسب مطلوبًا منى أن أتكلم كذلك .. »

ما كانت تشعر به هو مزيج من احترام نبله الذى يدعو للإعجاب ، لكنه يختلط بميلها الطبيعى لاحتقاره والسخرية منه كلما سنحت الفرصة . كانت تلك الحياة الرتيبة تثير ضجرها . وقررت أنه من الحمق أن تبحث عن عمل هذا الصيف .. يمكنها أن تنتظر حتى الخريف ولربما تجد فرصة عندئذ .

كان هو يعانى ضعفًا نحو الطفلة الصغيرة ؛ لأنه مولع بالأطفال فعلاً لكنه قلما يظهر هذا . وقد قال لملدريد إنه بوسعها لو وجدت عملاً أن تبقى فى البيت وهو سيحضر امرأة تعنى بالطفلة فى ساعات غياب الأم . وكان يقضى الساعات على ركبتيه يلاعبها فكانت ملدريد تسخر منه :

ـ « أنت فعلاً أحمق .. تبدو سخيفًا وأنت تلعب معها .. »

وكان هو يشعر بحرج من هذه العاطفة ، التـى هى أقرب إلى عاطفة أب نحو ابنته .. لكن هذه الطفلة ابنة رجل آخر ! لكن الطفلـة كانت تضع يدها على خده فينسى كل شىء .. وكانت ملدريد تذكره بأنه يتعامل فقط مع الجانب الجميل في الأطفال ، بينما سيجن جنونه لو أرغمته الطفلة على السهر ليلاً مع صراخها ..

وكانت الطفلـة قد تعلمت أن تصرخ فرحًا عندما تراه ، كما بدأت تسميه (بابا) ..

★ ★ ★

ذات ليلة اتجه فيليب إلى الحانـة كعادته يوم الثلاثاء ، حيث قابل صديقًا اعتاد أن يلقاه هنـاك اسمه (مكاليستر) كـان مولعًا بالبورصة والأسهم ...

قال له فى تلك الليلة :

- « لو كنت مهتمًا .. هناك منجم فى روديسيا أتوقع لأسهمه مستقبلاً عظيمًا .. »

كان مكالستر موفقًا فى عمليات الأسهم بشدة وكـان فيليب يحسده لهذا .. كـان المستقبل يثير رعبه وهو يعرف أن أمامـه ثـلاث سنوات حتى يتقاضى أول نقود ممكنة ، بينما لم يبق معه سوى

مائة جنيه .. ولو مرض لما وجد مالاً ينفقه على نفسه . لا شيء مثل ضربة حظ تضاعف مدخراته وتؤمن مستقبله .

كان فيليب ينتظر خبرًا كهذا ، لكن الخوف كان يغمره من فقد المال .. فهو لم يكن يملك روح المقامر على الإطلاق . قال مكالستر فى برود :

ـ « ليس بوسع المرء جمع المال ما لم يكن مستعدًا لفقد المال .. سوف أبتاع لك 250 سهمًا ولو ارتفع السعر نصف كراون فلسوف أبيع ... »

وهكذا ظل ينتظر .. ابتاع جريدة المساء وفتحها فوجد أن تلك الأسهم التى اشتراها ارتفع سعرها .. معنى هذا أنه كسب ثلاثين جنيهًا بضربة حظ ..

وقد خطر له أنه يتوق إلى إجراء الجراحة التى حلم بها لتقويم تشوه قدمه ..

أخبر ملدريد بهذا ..

كلم د . (جاكوبس) جراح العظام طالبًا أن يجرى له هذه الجراحة ، فوافق الرجل وإن حذر فيليب من أنه سيظل يعرج وإن كان بصورة أخف كثيرًا .. قال له فيليب إنه لا يتوقع معجزات ..

وجاء يوم الجراحة فتحملها بشجاعة وأقام بضعة أيام فى غرفة صغيرة ..

هناك زاره آل أثلنى ذات مرة ... وزارته ملدريد أكثر من مرة . كان أجمل شىء فى هذه الوحدة أنها أتاحت له فرصة القراءة ؛ لأنه لم يعد يقرأ جيدًا منذ جاءت ملدريد لأنها كانت دائمًا ما تذكر تعليقًا سخيفًا هنا أو هناك يحرمه من التركيز ، حتى إنه كان يتمنى لو سد فمها أو غرس مسمارًا فى عنقها .

عندما غادر المستشفى بدأ يحاول استعادة حياته من جديد ..

ملدريد كانت متضايقة من أنه لا يبدى أية عاطفة نحوها ، وقد قالت ساخرة أكثر من مرة :

- « يبدو أننى سامة .. »

فكان يقول لها :

- « لا داعى للشجار يا ملدريد .. »

- « أنت تحتقرنى .. أليس كذلك ؟ »

- « البتة .. لكن من الأفضل أن تظل حياتنا على هذه الوتيرة ... »

كان من الصعب أن تركز مع كلامها .. هى نفسها لم تكن تستطيع التركيز فيما تقول . يكفى أن يمر كلب أمامها حتى تخطر ببالها ملحوظة ما تجعلها تنسى ما كانت تقول .. وكانت ذاكرتها سيئة جدًا فيما يتعلق بالأسماء ؛ لذا كانت تتوقف فى وسط أية قصة محاولة التذكر .. ثم عندما يندمجان فى موضوع آخر كانت فجأة تصيح :

ـ « كولينز !. هذا هو الاسم ! كنت أعرف أننى سأتذكره .. »

وكان هذا يغيظه لأنه يدل على أنها لا تستمع لحرف مما يقول ، وبرغم هذا كانت تلومه لو التزم الصمت ..

كان يرمقها فى دهشة غير مصدق . كيف هام بحبها يومًا ما وتمنى لو يدخل روحها ليشاركها كل خاطرة وكل فكرة ؟.. اليوم هو لا يشعر نحوها بأى حب .. ربما يكرهها أحيانًا . إنها عاجزة عن التعلم ، وخبرات الحياة لم تزدها حكمة ولم تضف لها أى شىء ..

كان يتدرب فى قاعات الجراحة ، وقد كرس جهده فى غيار الجروح وتضميدها .. فهو لم يكن مهتمًا بالجراحة ويفضل عليها الأمراض الباطنية .. وكان يمضى الوقت فى استقبال الطوارئ يخيط الجروح ويجرى غسيل معدة للسكارى من رجال ونساء .. ويشخص حالات التهاب الزائدة . والحالات الصعبة كان يستدعى

من أجلها الطبيب المقيم محاذرًا لأن الرجل يكره أن ينزل أربعة طوابق من أجل لا شيء ..

كانت الممرضة التى تساعده امرأة خبيرة لها أربعون عامًا فى الطوارئ ، وقد كفت عن اعتبار الحياة شيئًا ينتقد أو يمتدح .. إنها حقيقة تقبلها أو ترفضها كما تشاء .. حكت له الكثير عن الرجل الذى سقط فى نهر التيمز ولم يمت غرقًا ، إنما مات بعد أيام بحمى التيفود بسبب تلوث الماء الذى شربه .. حكت له عن المنتحرين :

ـ « لا أحد ينتحر من أجل الحب .. هذا خيال قصصى .. من ينتحر ينتحر بسبب الإفلاس والفقر .. »

كان يفهم هذا لأن المال كان همه الوحيد .. المصاريف مرتفعة كأنه يأكل فى مطعم لأن ملدريد لم تكن تملك فضيلة الاقتصاد .. مصاريف الطفل باهظة بالإضافة لمصاريف مهمة لها مثل حذاء بعنق ومظلة . الخ ..

قال لملدريد فى ليلة الكريسماس وهما أمام النار :

ـ « كانت المشكلة أنك عجزت عن أن تحبينى وهذا أثار سخطى عليك ، برغم أن هذا سخف .. من الغباء أن ألومك على أنك لم تحبينى .. حسبت أن هذا بوسعى .. لا أعرف السبب الذى يجعل شخصًا يحب الآخر لكنه أهم شىء ، ومن دونه لا يمكن أن نخلق الحب عن طريق الكرم أو اللطف .. »

قالت له :

ـ « لو كنت تحبنى فعلاً لأبقيت على حبك .. »

ـ « أنا حسبت حبى سيدوم للأبد .. حسبت أننى سأموت من دونك .. وتمنيت أن تشيخى وتتجعدى بحيث لا ينظر لك أحد ، وعندها تكونين لى وحدى .. »

لم تعلق وأعلنت أنها ستدخل لتنام ..

* * *

20

جاءت الذروة بعد أسبوعين ..

كانت ملدريد فى حالـة من العصبية والغيظ بسبب سلوك فيليب . كانت تنتقل من مزاج لآخر بسهولة . هى لم تفهم فيليب كما أنها لم تمل له قط .. كانت منبهرة لأن أباه طبيب وعمه قس ، لكنها احتقرته لأنه أهان نفسه مرارًا أمامها . ولم تشعر براحة فى وجوده على الإطلاق ..

لكنها كانت ممتنة لأنها لا تدفع إيجارًا ، ويمكنها أن تظل فى الفراش الدافئ متى أرادت بعيدة عن خشونة الرجال وألفاظهم البذيئة ..

هى لا تحمل همه لأنها تعرف أنه لن يقاوم كثيرًا متى أرادت .. كم من مرة غضب عليها ثم خضع على الفور . هى تعرف تأثيرها الكاسح عليه . لقد رأته يبكى من اجلها .. يوشك على الزحف على الأرض من أجلها .. سوف يتوسل لها على ركبتيه من أجل حبها لكنها سترفض ..

الخطر الوحيد أن يكون قد وقع فى حب فتاة أخرى ، لكنها كانت تعرف أن هذه الفكرة غير صحيحة .. النساء يعرفن هذه الأمور بسهولة ..

لكن لماذا طلب منها أن تقيم فى بيته ؟.. لم تكن تفهم أمورًا مثل الشفقة والرحمة والفروسية وكل هذه الأشياء .. لم يكن عندها إلا تفسير واحد لموقفه معها هو أنه مخبول ..

هو لا يحبها ..هذا واضح .. لكن عليه ألا يتوقع أنها تحبه كذلك .. هى لا تحبه بل تكرهه أحيانًا . لكنه يهينها بالفعل عندما تمشى معه فى الشارع وتمد يدها لتلمسه فيبعد يده فى شىء من تقزز ..

لا يهمه من أمرها سوى الطفلة .. هذه هى الشىء الوحيد الذى يجعله يبتسم .. وملدريد تعرف كيف تثير جنونه لو صفعت الطفلة أو وبختها .

أثارت جنونها حقيقة أنها لا تملك أية سيطرة عليه من أى نوع وأنها تحت رحمته .. وأقسمت أنها ستجعله يدفع الثمن يومًا ما .. لكن لا داعى لتغيير الأوضاع ما دام هو يدفع الإيجار عن طيب خاطر ، وما دام عمه مسنًا موشكًا على الموت وربما ترك له ثروة ..

هكذا فى تلك الليلة سألته عن السبب الذى بدله بهذا الشكل ، فقال :

ـ « لأننى أحببتك جدًا .. هكذا نفد هذا الحب ولم أعد أقدر على أن أنظر لك من دون أن أرى إميل وجريفث .. »

لثمت يده ، وقالت :

ـ « ما دمت تكرهنى فعلى أن أرحل سريعًا .. »

ـ « لا .. ليس لديك مكان سوى هنا ، لكن لنتفق على أننا صديقان لا أكثر .. »

وأبعد يده عنها هاتفًا :

ـ « أنت تثيرين اشمئزازى ! »

ـ « أنا أثير اشمئزازك ؟! »

واستندت إلى رف المدفأة وأخذت شهيقًا ثم انفجرت بأعلى صوتها فى سباب فظ شنيع .. ألفاظ لم يتخيل قط أنها كانت تعرفها .. كان اللعاب يسيل من فمها :

ـ « أنا لم أعبأ بك قط .. ولطالما سخرت منك .. لم أكن لأتركك تلمسنى لو لم تكن بى حاجة للمال .. لكم سخرت منك أنا وجريفث ! »

واتجهت لباب غرفتها ، ثم قررت أن ترميه باللفظة الوحيدة التى تعرف أنها تؤذيه .. اللفظة التى قالتها بكل السم فى روحها وكل المقت :

ـ « أعرج !! »

* * *

عندما عاد من العمل فى المساء لم يجد لها ولا الطفلة أثرًا فى الشقة . لكنه وجد أنها أحضرت مطرقة ثقيلة وسكينًا وعكفت على تمزيق كل سجادة فى الشقة .. كانت هناك سجادة ثمينة

عليها لوحة راقية جاء بها من باريس فمزقتها .. مزقت الصور التى رسمها عندما كان فى باريس كلها .. بالمطرقة هشمت المرايا وكل شيء زجاجى . ثقبت الوسائد وأخرجت ما فيها من ريش ونثرته فى كل مكان .. فى المطبخ دمرت حوض الغسيل .. وهشمت كل الأطباق ..

حتى كتبه المهمة مزقت صفحاتها وانتزعتها انتزاعًا ..

كانت هناك سكين ضخمة ثقيلة وجدها مغروسة فى الفراش حتى تحطم نصلها . ولم يصدق مدى القوة الشيطانية التى مكنتها من هذا العمل ..

لم تكن حاجياته ثمينة لكنه ارتبط بها .. والمشكلة أن ابتياع حاجيات جديدة سوف يدمر مدخراته ..

قال لنفسه وهو يحاول تخيل وجهها الشيطانى وهى تحدث كل هذا التخريب :

ـ « رباه !. أرجو ألا أراها ثانية أبدًا .. »

* * *

فى هذا الوقت كانت إنجلترا تلاقى مشاكل جمة فى الترانسفال فى حرب البوير .. وبالطبع ساد الغلاء بريطانيا ، لكن مكالستر خبير الأسهم دخل الحانة ذات ليلة مبتهجًا وقال لفيليب إنه من الذكاء

الآن شراء أسهم مناجم الذهب فى جنوب أفريقيا ، فالناس تحسبها دمرت فى الحرب بينما لديه معلومات أكيدة أنها ستعود للانتاج ..

ـ « هذا ليس قمارًا بل هو استثمار .. أنا اشتريت أسهمًا كثيرةً لأختى وما كنت لأورطها فى شىء كهذا لو لم أضمن النتيجة .. لو استطعت بيع سراويلى لابتعت به أسهمًا .. »

كان فيليب يثق فى مكالستر لأنه إسكتلندى أولاً وبالتالى هو حريص ، ولأنه جربه من قبل ووجده خبيرًا .. لهذا اشترى 300 سهم . لم يكن عليه أن يدفع بل كان ثمن الأسهم يؤخذ من الأرباح ..

لكن الأمور بدأت تسوء وبدأ سعر الأسهم ينخفض للنصف .. ووجد فيليب أنه مدين بأربعين جنيهًا لو باع الآن وهو مبلغ مروع ؛ لذا كان التصرف الوحيد أن يتماسك ويظل كما هو ..

لم يعد يقدر على النوم .. كما لم يعد يعرف ما يجب عمله . كف عن تناول الطعام والذهاب للمقاهى حتى لا يرى عناوين الصحف .. لقد انخفضت مدخراته الآن إلى ثمانين جنيهًا وخسر نحو 300 جنيه .. كان مجنونًا عندما دخل لعبة الأسهم هذه ..

ذهب إلى الحانة لأنه يستريح هناك كلما سمع عن خسائر الآخرين المروعة ، قابل مكالستر فوجده مذعورًا مثله ، وقال له :

ـ « لابد من البيع الآن ! »

كان هـذا مروعًا .. معنـاه أن الوضـع لـن يتحسـن وأن عليـه قبول الخسارة .. لكنه تظاهر بهدوء الجنان ، وقال :

ـ « إذن فلنتبع .. »

ـ « الكلام سـهل .. لـن نجد مشـتريًا مهمـا حاولنـا .. إن هـذه الأسهم لا تساوى شيئًا على الإطلاق .. »

هكذا عاد فيليب لداره وأعاد حسـاب مـا معـه .. عندمـا يسدد ديونه لن يبقى معه سوى سبعة جنيهات !

إنه مفلس تمامًا .. اقترض من صديق له خمسة جنيهـات لكن زميله أوصاه أن يردها قبل انقضاء الأسبوع . هكذا ـ وقد عرف أنه عاجز عن ردها ـ أعادها له بعد يومين ! كتب لعمه يطلب منـه قرضًا بـ 150 جنيهًا على أن يقسطها بعد تخرجه ، لكن العم كـان صارمًا ورد بأنه لن يفعل ذلك لأنه مسـئول عن نفسـه كذلـك فـى حالة المرض .. هو أنذر فيليب مرارًا من التبذير وتوقع أن يحدث هذا .. الآن ليس من العدل أن يتحمل غلطة طالما حذره منها !

للمرة الأولى يجد فيليب نفسه فقيرًا لهذا الحد . كـان يعرف الفقر ، لكنه حيث نشأ لم يعتد الناس الفقر الذى يبلغ بالإنسان ألا يجد شيئًا يأكله .. هكذا عرف الجوع ووجبة البسكويت الوحيدة طيلـة اليوم . فقط كان يتحمل حتى يوم الأحد لأن وجبة سـاخنة دسمة تنتظره عند آل (أثنلى) وهم لا يشكون لحظة فى أنه جائع .

كان يعتقد أن هذا كله كابوس سوف يفيق منه .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا ..

سوف يموت جوعًا لو لم يجد عملاً .. لكنه فشل فى العثور على عمل وهو ما زال طالبًا فى الصف الرابع ، ومع قدمه المشوهة لا يمكنه أن يلتحق بالجيش ..

عجز عن دفع الإيجار عدة أسابيع ، وهكذا جاء يوم وجد أنه غير قادر على العودة ومواجهة صاحبة النزل .. من ثم مشى فى الطريق بلا هدى ، حتى وجد حدائق القصر فارتمى على العشب ونام بعض الوقت .

★ ★ ★

عندما ذهب للعشاء عند (أثنلى) يوم الأحد ، شعر بتأثر بالغ حتى كادت عيناه تدمعان من حرارة استقبال الأطفال له . كان قد فقد الكثير من وزنه حتى أن زوجة (أثنلى) اقترحت أن تحضر له بيضة مخفوقة مع بعض السكر .

عندما انتهى العشاء طلب (أثنلى) من زوجته والأطفال أن يتركوهما ، ثم سأل فيليب عن أحواله .. وقال له إن أحدًا لن يسمعهما ..

ارتبك فيليب لأنه لا يعرف ما يريد الرجل قوله . قال له مضيفه إنه قلق لأنه لم يأت الأسبوع الماضى ، فقصد داره .. هناك عرف من صاحبة النزل أنه لم يعد للبيت منذ أيام والإيجار لم يدفع منذ أسابيع .. ذهب إلى المستشفى فعرف أنه متغيب ..

قال لفيليب فى لهجة لائمة :

ـ « لماذا لم تأت إلى وتخبرنى ؟.. أنا وزوجتى واجهنا أوقاتًا عصيبة أكثر من هذه مع فارق مهم هو أنه كان لدينا أطفال .. »

شعر فيليب بأنه يوشك على البكاء .. وتماسك حتى لا يفقد كرامته ..

قال له الرجل :

ـ « انتهى الأمر .. سوف تسدد لصاحبة النزل الإيجار ثم تأتى لتقيم عندنا ..لا تقل إن طعامك سيكلفنى شيئًا .. »

ثم رفع عقيرته مناديًا زوجته :

ـ « (بيتى) .. إن مستر (كارى) سيعيش معنا لبضعة أيام ! »

صاحت من الداخل بطريقة تلقائية وكأنه خبر لا غرابة فيه :

ـ « مرحى .. سأعد له غرفة مناسبة ! »

لم يعتد فيليب أن يتلقى معاملة حسنة ، وقد شعر بأنه غير قادر على قول كلمة واحدة ..

كان يعرف أنه عبء كبير على هذه الأسرة متوسطة الحال كثيرة العدد ؛ لذا صمم على أن يجد عملاً بأقصى سرعة .. وقد وعده (أثنلى) بأن يكلم مدير شركة الملبوسات التى يعمل فيها فى أمره ..

هكذا وجد فيليب نفسه يعمل فى هذه الشركة .. يشرف على الأقمشة ويبدل ثياب المانيكانات فى نوافذ العرض .. وهو عمل لم يحبه ووجده مرهقًا جدًا وراتبه كان ضئيلاً ، لكنه لم يملك الخيار . وسرعان ما وجد لنفسه إقامة دائمة فى مسكن عاملى تلك الشركة ..

كانت العاملات فى الشركة ينظرن له باعتباره غريب الأطوار ، وحاولت واحدة أو اثنتان أن تجذباه لكنه كان قد اكتفى لفترة طويلة من قصص الحب .. ثم كيف يستطيع أن يحب وهو جائع على الدوام ؟

فى المساء كان يعود مرهقًا ليجد أنه عاجز عن قراءة حرف من كتبه .. وأنه عاجز عن التركيز تمامًا . وأدرك أنه لن يتمكن من استكمال دراسة الطب أبدًا ما لم يجد مالاً . هكذا تركز اهتمامه على موت عمه .. لقد تجاوز السبعين وهو مصاب بالتهاب شعبى مزمن .. لو مات لترك له بضع مئات من الجنيهات لا تجعله ثريًا

لكنها تساعده على إتمام الدراسة .. المشكلة الحقيقية أن يكون العم تمادى فى عقابه فترك ماله للكنيسة .. عندها كان فيليب يعرف جيدًا ما سيحدث .. لقد تحمل فى كل مرة لأن هناك أملاً فى الأفق ، لكنه فى تلك اللحظة سوف ينهى حياته .. وراح يرتب أمر العقار الذى سيتعاطاه والذى لن يسبب له ألمًا ..

برغم هذا كان يتردد على المستشفى سرًا فى ساعات متأخرة ـ كى لا يقابله أحد ـ كى يتفقد خطاباته بانتظار البرقية التى تخبره أن عمه قد توفى ..

ذات ليلة وجد خطابًا بخط لم يميزه جيدًا .. هكذا فتحه فى توتر وقلبه يخفق ..

قرأ العبارات الآتية :

« عزيزى فيل ..

« أريد أن اراك لأمر مهم لأننى فى مشكلة خطيرة . الأمر لا يتعلق بالمال .

ملدريد»

مزق الخطاب إلى قطع صغيرة وألقاه فى الشارع ليتبعثر فى الظلام .. وشعر بغثيان لفكرة أن يراها ثانية . لقد صار يكرهها بشدة ..

لكنه فى الفراش ظل يفكر فيما حدث لها .. ما كانت لتكتب له إلا لو بلغ القنوط منها مبلغًا .

* * *

هكذا وجد نفسه كأنما هو مسحور يمشى إلى العنوان الذى قرأه على مغلف الخطاب .. وجده بيتًا عتيقًا مريب الشكل وفتحت له عجوز تفحصته بدقة فسألها عن ملدريد ..

قرع باب غرفتها ففتحت له . كانت غرفة صغيرة جدًا قذرة غير مرتبة ككل مكان عاشت فيه ، وكل شىء فيها يوحى بأنها عادت للحياة التى كان انتشلها منها . وقد قالت له :

ـ « اجلس .. أراهن على أنك لم تتصور أن أتصل بك .. »

ـ « إن صوتك مبحوح تماما .. »

وبحث بعينيه عن الطفلة ، لكن لم تكن هناك علامة توحى بأن طفلاً كان هنا . أما ملدريد فازدادت نحولاً وصبغت شعرها بلون لا يناسبها فبدت سوقية جدًا ..

قالت له :

ـ « عرفت أنك لا تذهب للمستشفى . فلعلك نسيت مهنة (الدكترة) ؟ »

ـ « ليس تمامًا .. »

ـ « هذا هو السبب الذى طلبتك من أجله .. إن لدى طفحًا جلديًا لا يشفى .. »

أصابه الهلع .. وشعر بالعرق يحتشد على جبهته . طلب أن يفحص حلقها .. والتقت عيناه بعينيها فرأى فيهما كل الرعب وكل الهلع .. لم تكن تريد أن تعرف الحقيقة ..

قال لها فى رعب :

ـ « أنت مريضة .. مريضة جدًا ... »

وقال لها اسم مرضها(*) .. كلمها عن الخطر الذى هى فيه وما تسببه من خطر للآخرين .. وكتب لها بعض العلاج وأوصاها أن تبتاعه بسرعة وتستعمله بدقة ..

هنا جلست وانفجرت فى بكاء حار عميق ..

هم بالانصراف فارتمت عند قدميه وتمسكت بثيابه وراحت تصرخ :

ـ « فيليب .. لا تتركنى !. أنا مذعورة وما من أحد ألجأ له فأنت صديقى الوحيد ! »

(*) بالتحفظ البريطانى الشهير لا يذكر (موم) أنها مريضة بالزهرى ، وهو مرض ناجم عن الانحراف الأخلاقى ، وفى عصر ما قبل البنسللين كان هذا المرض حكمًا بإعدام المريض لا استئناف فيه ..

نظر للذعر فى عينها وتذكر ما أصابته به من ألم .. برغم هذا هو غير قادر على تركها وشأنها . وقال لنفسه : لن أنتصر عليها أبدًا ! والغريب أنه كان مشمئزًا منها لا يطيق أن تلمسه .. لكنه يشعر بأنها تزحف فى حياته من جديد بعد ما تخلص منها .. سألها :

ـ « ماذا تريدين منى ؟ »

ـ « أن نخرج لأى مكان ونتناول عشاء .. سوف أدفع أنا .. »

هز رأسه موافقًا فارتدت حذاءها وقبعتها ثم خرجت معه .. وجدا مطعمًا رخيصًا فاتجها له ولم تطلب أى طعام تقريبًا لأن حلقها يمنعها من الابتلاع . هكذا جلسا يأكلان فى صمت ..

وفجأة قالت له :

ـ « الطفلة ماتت الصيف الماضى ! »

قال :

ـ « أوه ! »

ـ « يمكنك أن تبدى الأسف .. »

ـ « بالعكس .. أنا مسرور لذلك .. »

نظرت له ثم فهمت ما يريد قوله ولزمت الصمت ..

أوصلها لغرفتها وغادر المكان فى الثامنة مساء ، وهو يقول لنفسه :

ـ « هذه هى النهاية .. ليس بوسعى عمل شىء آخر لها .. »

ولم يرها قط بعد هذا ..

* * *

21

جـاءته أنباء أن عمـه ليس على ما يرام فسـارع بالسـفر ليراه ..

منذ اللحظة الأولى أدرك أن الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة . وهو لم يفارق الفراش منذ أشـهر .. لكن الرجل كان مذعورًا من الموت .. كان يؤمن بالخلود والنعيم الأبدى لكنه كما يبدو يخشى الرحلة ويفضل أن يوجد فى الموضع الذى ألفه . لهذا كان لا يكف عن القول إنه بخير وإن شهيته طيبة .. كان يرفض فكرة الموت بشدة ؛ لذا راح فيليب يسأل نفسه عما أضافه الإيمان للرجل إذا كان يخشى الموت بهذه الشدة .

وراح يسأل (فيليب) عن طريقة للحصول على الدواء مجانًا ... بينما راح فيليب ينظر إلى قطع الأثاث ويسأل نفسه عما يمكنه الحصول عليه لو باعها .. فى مرآة رأى وجهه فشعر أنه وجه حيوان مسعور .

كان يفكر فى مدى سهولة إنهاء تلك الحياة عديمة النفع . إن العجوز يحتفظ قبل النوم بكوب فيه جرعة من المورفين يتناولها

لو اشتد به الألم ليلاً .. حوالى الثالثة أو الرابعة صباحًا . ليس أسهل من مضاعفة الجرعة من ثم ينام فلا يفيق أبدًا ..

المال !. كم هو محتاج للمال ! سوف يختصر من حياة الرجل بضعة أشهر لن تفيده فى شىء ، لكنها تعنى الكثير لفيليب . لكنه لم يجسر على ذلك .. كان يعرف أنه لن يتحمل تأنيب الضمير ، فلا معنى لامتلاك المال دون راحة بال .. ما أبشعها فكرة ! كيف خطرت له ؟ هذه جريمة قتل .. فهل هو شاذ معقد أم أن الناس جميعًا مثله ؟

مرت الأيام وبدا أن الرجل يتحسن .. كان مؤمنًا أنه سيعيش عامين آخرين ، لكن فيليب صحا ذات يوم على صوت يناديه .. هرع لغرفة النوم فوجد عمه شاحب الوجه والعرق يغمر جبينه وقال له :

ـ « اطلب القس الجديد .. أريد طقوس التناول .. أنا أموت الآن .. »

كان صوته يرتجف من الرعب وسالت دمعتان من عينيه . مد يده يعتصر يد فيليب .. وبرغم أن فيليب ظل فترة طويلة لا يتمنى سوى موته فإنه الآن شعر برهبة إشفاق شديد عليه .. إذن

سوف نمر جميعًا بهذا ؟.. يا له من ثمن ندفعه كى نتميز عن الحيوانات التى لا تعرف أنها تموت !.

جاء القس وهو يحمل حقيبته ومنضدة التناول ، فخرج فيليب من الغرفة يمشى فى الحديقة التى يغمرها الندى .

طلبت منه الخادمة أن يذهب إلى الحانوتى ليطلب منه امرأة تعد جثة المحتضر .. هكذا غادر البيت ومشى وهو يفكر فى لغز الموت ..

عندما عاد وجد أن عمه يلفظ آخر أنفاسه .. حشرجة .. حشرجة .. ثم توقفت الآلة نهائيًا ...

★ ★ ★

بعد أيام أنهى فيليب إجراءات الميراث ، وعاد إلى المستشفى ليسأله الجميع أين كان ؟.. لكن تجربته علمته أن يكون باردًا وأن يرد بتحفظ عليهم بأنه كان مشغولاً ..

هكذا عاد للعمل فى قسم التوليد ، وقد أكسبته أيام الفقر حنكة ورفقًا بالفقراء .. كان يتكلم بلغتهم ويفهمهم ، كما أنه اكتسب شهية هائلة فصار يأكل أى شىء يقدم له ..

هناك تعلم الكثير عن الفقر ، وكيف أن الأم تلد طفلها فتدعو الله أن يأخذه لأنها لا تعرف كيف تطعمه .. وهكذا كان يحذر الأم فى كل مرة من أن يقع (حادث) لطفلها كأن تنام عليه وما إلى ذلك ..

جاءت نوبتجيته الأخيرة كطبيب توليد ، وقد دخل فراشه فى تلك الليلة بعد ما أنهى عمله . فقط ليسمع صوت العامل وقد جاء ليوقظه لحالة ولادة فى البيت . قال له فى غضب :

ـ « أنت آخر شىء تمنيته هذه الليلة .. »

وارتدى ثيابه وخرج ليقابله الزوج الذى مشى به فى شوارع مظلمة ضيقة فى منطقة قذرة جدًا لم يرها فيليب من قبل .. قال له محذرًا :

ـ « هذه البقعة سيئة يا سيدى فدعنى أسبقك فى المشى .. »

لكن فيليب كان قد جرب أحياء قذرة من قبل ، وكان يعرف أن حقيبة الطبيب السوداء تعطيه الأمان فى أكثر بقاع المدينة توحشًا .. بقاع لا يجسر رجل الشرطة نفسه على أن يمشى فيها .. وبالفعل كان يلقى مجموعات من الرعاع ينظرون له فى

حدة ثم يقول أحدهم للآخر : « هذا طبيب المستشفى .. » ، وكم من واحد قال له بلهجته الفظة : « مساء الخير يا سيدى .. »

عندما وصل إلى العنوان استطاع أن يتفحص الزوج لأول مرة فأدرك أنه فتى صغير السن أمرد الوجه مذعور تمامًا . الزوجة كانت فى حالة سيئة وكانت طفلة فى الخامسة عشرة أو أقل ومن الواضح أنهم استخرجوا لها شهادة تسنين مزيفة . ظل يعمل ساعتين وفى النهاية خرج الطفل حيًا سليمًا ..

أطلق صيحة ارتياح .. ونظر إلى الأم .. هنا شهق فى ذعر وقد أدرك أن نبضها ضعيف جدًا . أرسل فى استدعاء طبيب التوليد المقيم فى المستشفى وراح يدعو الله أن يأتى سريعًا ..

وصل الطبيب أخيرًا وفحص المرأة .. ثم قال للفتى المذعور :

ـ « إنها فى حالة ميئوس منها .. إنها فى نزف داخلى .. »

وراح يحاول أن يعيد لها الحياة بلا جدوى .. سرعان ما لفظت أنفاسها الأخيرة ..

هكذا غادر الرجلان البيت تاركين الزوج الشاب لا يعرف ما يفعل .. وقال الطبيب المقيم لفيليب المذهول :

ـ « هذا يحدث كثيرًا .. يجب أن تعتاده .. كم حالة ولدتها فى قسم التوليد ؟ »

ـ « خمسة وستون .. »

ـ « هذا عدد كاف .. سوف تنال الشهادة .. سلام .. »

وترك فيليب .. هكذا مشى فيليب وقد بدأ الفجر يغمر المدينة بضوئه الشاحب الندى . لقد انتهت آخر نوبتجية له فى قسم التوليد وكانت نهاية دامية . مشى إلى الجسر ووقف يرمق مياه نهر التيمز سائلاً نفسه عن الهدف من هذا كله ..

* * *

كان يتردد كعادته على آل (أثنلى) الذين سرهم أن أحواله بدأت تتحسن ..

وعلى سبيل رد الجميل جلب لهم عدة أشياء من تلك التى ورثها عن عمه .. ومن بينها قلادة صغيرة خاصة بزوجة عمه أهداها لـ (سالى) ..

كانت (سالى) قد كبرت وصارت فتاة ناضجة مليئة بالصحة متوردة . كانت مكتملة الجسد ولطالما أعجب هو باللياقة الجسدية

لأنه حرم منها ، وكان هذا يشعره بالتضاؤل . لكنها كانت قليلة الكلام وقد كان الشباب يعجبون بها بشدة لكن ساد لديهم انطباع أنها أقرب إلى البرود وشح العواطف ..

وقد سألها فيليب أكثر من مرة عن سبب قلة كلامها ، فكانت تقول :

ـ « لا ينقصنا من يفرط فى الكلام فى هذا البيت .. »

وهى عبارة تشير إلى أبيها الذى لا يكف عن الكلام أبدًا .. لقد كبرت الفتاة التى كانت تقدس أباها فى الماضى فصارت ترى عيوبه ..

كانت تزور صديقاتها باستمرار وفى ذات مرة رآها شاب يعمل كهربائيًا وأعجب بها وأعلن أنه سيتقدم لها . هكذا ساد جو من الترقب بيت (أثنلى) وراحت الأم تنظف وترتب كل شىء فى حماس ، بينما ارتدى الأب أفضل ثيابه وإن أصر على أن يستقبل العريس واضعًا طربوشًا مصريًا على رأسه .. وبرغم محاولات الأم لجعله يعدل عن هذا المظهر الغريب ، لكنه كان مصرًا على أن يرى العريس طبيعة هذا البيت ..

جاء العريس وكان شابًا وسيمًا أقرب للخجل .. وفى تلك الجلسة التى حضرها فيليب راح يراقب الاثنين .. كائنين جميلين مناسبين لبعضهما فعلاً ، وشعر بنوع من الحسد للسعادة التى تنتظرهما ..

لكن بعد انصراف العريس أعلنت سالى أنها غير موافقة عليه .. إنها تراه سخيفًا ..

صاحت الأم فى غيظ :

ـ « أنت مجنونة ..!.. هذا عريس مناسب وسوف يقدم لك بيتًا جميلاً ... لا تنسى أن عددكم كبير جدًا وتمثلون حملاً علينا .. لابد من أن نتخلص من بعضه .. »

كانت هذه أول مرة يسمعها فيها فيليب تشكو ..

لكن (سالى) أصرت على رفض العريس وارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيها لم يفهمها فيليب ..

* * *

22

بعد نجاحه فى امتحان الجراحة تخرج فيليب ..

سبعة أعوام مضت عليه منذ دخل مستشفى (سانت لوك) لأول مرة ، وهو الآن يتخرج متأخرًا كثيرًا جدًّا عن أترابه الذين يعمل معظمهم الآن ..

قابل السكرتير الذى لديه قائمة بعروض العمل المتاحة ، فعرض عليه هذا الأخير عملاً لمدة ثلاثة أشهر مع طبيب يدعى (ساوث) فى قرية ساحلية . لقد مرض مساعده بداء (أبو كعب) ، وهو يريد مساعدًا بأسرع ما يمكن .. لو وافق فيليب فعليه أن يتأهب للسفر ظهر غد ..

قال له إنه سيتقاضى ثلاثة جنيهات فى الأسبوع ويُمنح مسكنًا مع الوجبات ..

ـ « لكنى حديث التخرج .. هل هذا يناسبه ؟ »

ـ « ثق أنه سيناسبه فلا أحد يريد أن يعمل معه ..!.. يقولون إنه غريب الأطوار ! »

هكذا وجد فيليب نفسه يسافر إلى حيث المستوصف الذى يملكه ذلك الطبيب ، وكان رجلاً مسنًّا يمارس الطب بالطريقة القديمة . أخبره فيليب إنه حديث التخرج فسأله عن عمره :

- « أنا فى الثلاثين يا سيدى .. »

- « سن كبيرة جدًا بالنسبة لحديث التخرج .. »

- « دخلت المدرسة فى الرابعة والعشرين ثم تركت الدراسة لمدة عامين .. »

- « والسبب ؟ »

- « الفقر .. »

وعرف فيليب أن الرجل يمارس الطب بطريقة قديمة ويصر أن على الطبيب أن يحضر مستحضراته بنفسه ، ولا يثق فى الأدوية التى تملأ السوق . لهذا السبب كان الأطباء الشبان يصطدمون به ثم يفرون منه ، وقد راح فيليب يعالج المرضى وكون علاقات لا بأس بها ، وبدا أن الرجل يثق فيه . حتى جاءت طفلة صغيرة ذات يوم تقول لفيليب :

- « هل لك يا سيدى أن تأتى لتفحص مسز (فلتشر) فى (أيفى لين) ؟ »

سألها د . (ساوث) :

- « مم تشكو ؟ »

لكن الطفلة لم توجه له الكلام ، بل عاودت الطلب من فيليب .. وفى النهاية قالت :

ـ « مسز (فلتشر) تريد أن يفحصها الطبيب الجديد ! »

استشاط د . (ساوث) غضبًا هنا فعلت الفتاة الشىء الوحيد الممكن .. أخرجت لسانها له ثم فرت سريعًا قبل أن يقبض عليها . قال د. (ساوث) فى غيظ :

ـ « على كل حال يمكنك أن تذهب لتراها .. هذا مشوار شاق على من كان ذا قدمين مثلى فما بالك بمن لا يملك إلا قدمًا ونصف !! »

نظر له فيليب فى حدة .. دائمًا يحدث ذات الشىء كلما اغتاظ منه أحدهم .. لابد من أن يعايره بعاهته ..

لم يرد وسرعان ما انطلق ليفحص المريضة ..

لما عاد قال له د . ساوث :

ـ « أنا آسف للملحوظة الفظة التى قلتها .. »

ـ « لقد اعتدت هذا .. »

ثم قال ساوث فى رفق :

ـ « أنا أفكر جديًا فى أن أبقيك هنا معى مساعدًا ... القرويون بدءوا يحبونك وهذه العيادة تحقق 700 جنيه فى السنة .. يمكن أن نتقاسم المبلغ وسوف أتخلص من هذا الغبى المصاب بداء (أبو كعب) .. »

دهش (فيليب) لهذا ، وقد أدرك أن العجوز بدأ يحبه . كان وحيدًا تمامًا وقد توفيت زوجته منذ 30 عامًا بينما له ابنة متزوجة تعيش فى روديسيا ولم يرها منذ أعوام ..

لو سمع سكرتير المستشفى هذا لاندهش جدًا ..

كان عرضًا مغريًا بالتأكيد يحلم به أطباء كثيرون ، لكنه كان بلا معنى بالنسبة لفيليب .. وقد رفضه فى تهذيب قائلاً :

ـ « شكرًا يا سيدى .. لكننى أحلم بالسفر ورؤية العالم .. أحلم برؤية أسبانيا وبعدها زيارة الشرق الأقصى حيث أرى أناسًا يتكلمون لغات غريبة ويفكرون بطريقة مختلفة .. أريد أن أرى معابد ومساجد وأمشى فى أسواق شرقية .. هذا العرض معناه أن تنتهى حياتى عند هذا الحد .. »

وعندما ودعه د. (ساوث) على المحطة بعد انتهاء الثلاثة الأشهر ، أكد له أن العرض ما زال مفتوحًا فى أى وقت يريد العودة فيه ..

وابتعد القطار بينما عاد الرجل إلى عالم الوحدة والوحشة الذى جاء منه ..

★ ★ ★

عندما عاد إلى آل (أثنلى) بعد هذه الرحلة ، ازداد تقاربه مع سالى .. واعترفت له أنها كانت تميل له دومًا ..

ـ « لم ألحظ هذا من قبل .. »

ـ « لأنك غبى وسخيف ! »

كان هذا الحب يعنى الكثير من التغييرات .. هو لم يحبها قط، لكنه كان معجبًا بصحتها ونضارتها . لكنه يشعر بأنه لا يقدر على تركها محطمة القلب فهو ليس (جريفث) الذى كان سيرحل فى بساطة . هذا يعنى أن عليه أن يبدل خططه من جديد .. أن يتزوج ويستقر حيث هو وينسى تمامًا أسبانيا والشرق الأقصى .. معناه أن يكتب لدكتور ساوث يخبره أنه قبل عرضه .. معنى هذا أنه سيعيش للأبد مع زوجته فى قرية الصيادين تلك . يرقب السفن المسافرة إلى بلاد لن يراها أبدًا .

الليالى الهادئة معها جوار النار ، بينما الصيادون الفقراء يمرون على الدار ليهنئوا العريسين الجديدين .. الطفل الذى سيكون له .. هذا الجزء يشعره بحنين شديد ، خاصة وهو يتخيل نفسه يداعب أطرافه الصغيرة الهشة .. سوف يكون جميلاً بالتأكيد ..

تذكر عاهته التى عذبته طيلة حياته ، وخطر له أنها أفادته برغم كل شىء لأنها علمته كيف يتذوق الجمال .. علمته أن يكون له عالم داخلى ثرى ..

ثم من هو الطبيعى فى هذا العالم ؟.. كل إنسان عنده عيب ما يخفيه عن الناس . ما أكثر الغريب وما أندر العادى !.

لقد كان هذا يعنى الكثير برغم كل شىء .. لقد كان يصبو للإبحار فى المحيط الواسع فاكتشف أنه مضطر للحياة فى دغل رحب هادئ .. فى البداية شعر بأن هذا سجن ، ثم أدرك أنه بالفعل لا يريد سوى تلك الحياة الهادئة . هو لا يريد من الحياة سوى زوجة ومنزل سعيد .. ما عاش يطارده لم يكن سوى أحلام أناس آخرين بينما لم يفتش قط فى أعماقه عن حلمه الخاص ..

لقد عاش طيلة حياته يطارد الغد بينما الحاضر يفلت من يديه بلا توقف .. ولم يفطن إلى أن أفضل الأشياء قد تكون أبسطها ..

نظر لها ، وقال :

ـ « أتمنى أن تكونى زوجتى .. »

قالت بطريقتها المعتادة :

ـ « وماذا عن أسفارك ؟.. أسبانيا وكل هذا ؟.. لقد سمعتك تتكلم بحماس عن هذا مع أبى .. »

قال بصوت مبحوح :

ـ « لا أطيــق أن أتركــك . لا أريــد أن أتركــك .. تزوجينى يا سالى .. »

لم يتغير تعبير وجهها ، وهى تطرق وتقول :

ـ « لو أردت أنت ذلك .. »

ـ « إذن أنت لا تريدين الزواج منى بالذات ؟ »

ـ « ما من واحد آخر أرغب الزواج منه .. »

ـ « هذا يحسم الأمور .. »

ـ « سوف يندهش أبى وأمى عندما نخبرهما .. »

تناول يدها وضغط عليها . وخرجا لينظرا إلى ميدان ترافلجار الممتد أمامها .. سيارات الأجرة والحافلات تسرع فى كل صوب ، والزحام فى كل مكان ، بينما الشمس تسطع .

* * *

سومرست موم 1915

روايات عالمية للجيب

■ صدر من هذه السلسلة ■

1 ـ فلاش جوردن .
2 ـ كنوز الملك سليمان .
3 ـ دكتور نو .
4 ـ حرب النجوم .
5 ـ الفك المفترس .
6 ـ فوق مستوى الشبهات .
7 ـ رحلة إلى مركز الأرض .
8 ـ الغيبوبة .
9 ـ الشيطانة .
10 ـ لقاءات من النوع الثالث .
11 ـ وجاء العنكبوت .
12 ـ قبضة الشيطان الذهبية .
13 ـ نداء الأعماق .
14 ـ القتل دون مقدم أتعاب .
15 ـ سلالة أندروميدا .
16 ـ الغرفة الحمراء .
17 ـ وادى العناكب .
18 ـ صورة دوريان جراى .
19 ـ العالم المفقود .
20 ـ صانع الأمطار .
21 ـ ألف ليلة وليلة الجديدة .
22 ـ سباق الموت .
23 ـ كونغو .. !
24 ـ كلب آل باسكرفيل .
25 ـ مدينة مثل أليس .
26 ـ الحزاز .
27 ـ مطار (77) .
28 ـ النطاق المسموم .
29 ـ الجزيرة .
30 ـ لا تنظرى الآن .
31 ـ جزيرة الدكتور مورو .
32 ـ عرين الدودة البيضاء .
33 ـ رحيق الملكات .
34 ـ وصية الثلاثين ألف دولار .
35 ـ العميل .
36 ـ ما وراء العالم .
37 ـ خلف جدار النوم .
38 ـ الغريم الخفى .
39 ـ قضية الذئب .
40 ـ الرجل الذى كان الخميس .
41 ـ الجزيرة الغامضة .
42 ـ 451 فهرنهيت .
43 ـ دورة المذءوب .
44 ـ حكايات أوسكار وايلد .
45 ـ قلب الليل .
46 ـ كتب الدم .
47 ـ أوديسا الفضاء .
48 ـ دكتور جيكل ومستر هايد .
49 ـ حكايات مارك توين .
50 ـ 1984 جـ 1 .
51 ـ 1984 جـ 2 .
52 ـ موبى ديك .
53 ـ غريب فى أرض غريبة جـ1 .
54 ـ غريب فى أرض غريبة جـ2 .
55 ـ حكايات أندرسن .
56 ـ الستار .
57 ـ قصص من أزيموف .
58 ـ شرطى المكتبة .
59 ـ أسطورة سليبى هولو .
60 ـ كارميللا .
61 ـ محامى الشوارع .
62 ـ قاعة المرايا .
63 ـ جوهرة النجوم السبعة .
64 ـ مغامرات آرسين لوبين .
65 ـ أليس فى بلاد العجائب .
66 ـ قلعة الأسرار .
67 ـ عبودية الإنسان .

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

67



عبودية الإنسان

عن عبودية الإنسان يتكلم الأديب البريطانى الكبير (سومرست موم) .. عبودية الإنسان المكبل بأصفاد أحلامه وعقد نقصه وذكريات طفولته وطموحاته وشهواته ، وحبه لمن لا يستحق الحب ، ونفوره ممن يستحق .. إنها حياة كاملة على الورق تدور فى رقعة أرضية واسعة بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، ورقعة زمنية توشك أن تكون شباب المؤلف ذاته . هذه القصة هى أهم أعمال موم ، والنقاد يعتبرونها سيرة ذاتية له ، وإن ظل ينكر هذا ، ثم فى النهاية اعترف بأنه لا يذكر كم منها حقيقى وكم وليد الخيال .

عن عبودية الإنسان يتكلم موم فنصغى ..

العدد القادم

نداء كتولو





